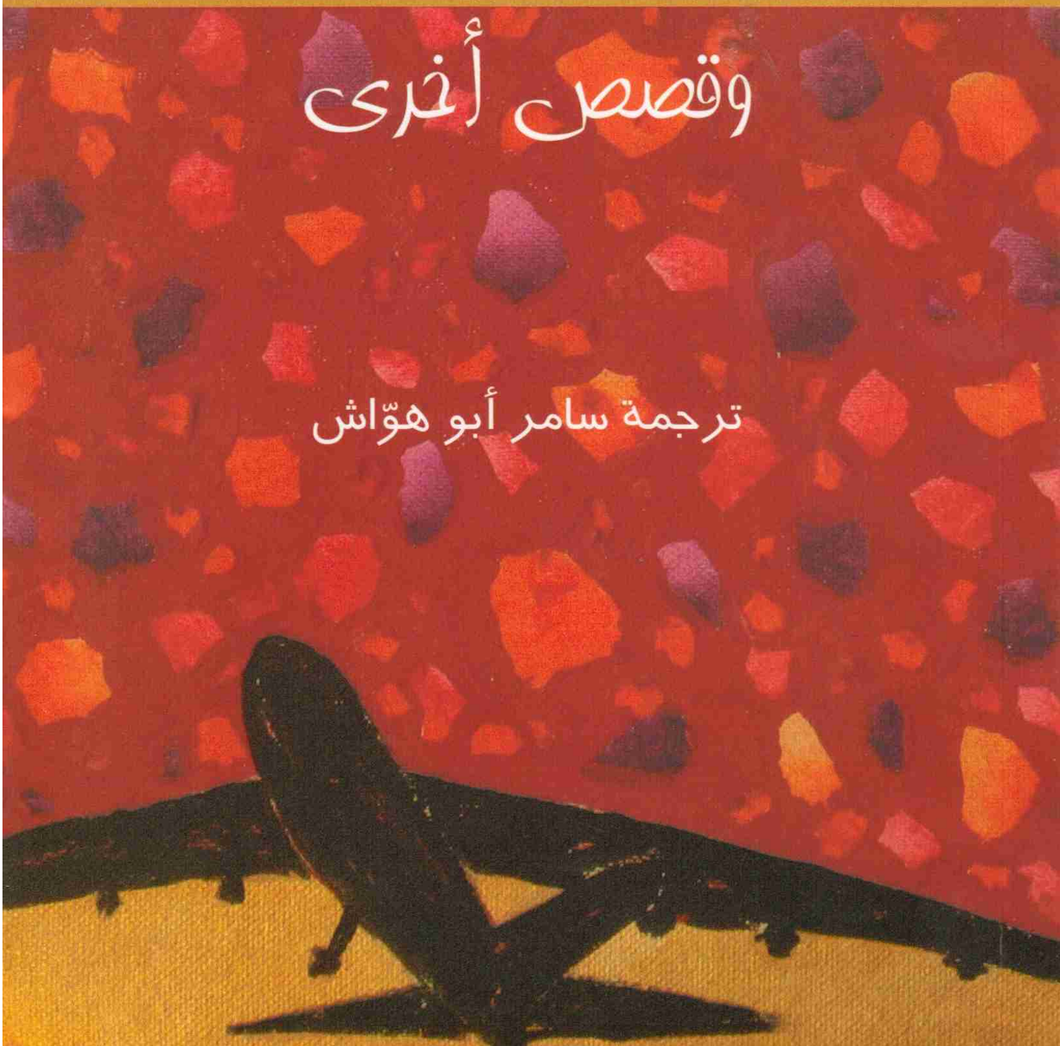
وليام فوكنر

نحو النجوم

وقصص أخرى

ترجمة سامر أبو هوّاش



نحو النجوم

وليام فوكنر

نحو النجوم

وقصص أخرى

ترجمة: سامر أبو هواش

كلمة
KALIMA

دار الآداب

نحو النجوم وقصص أخرى

تأليف / وليام فوكنر

الطبعة الأولى: ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

ص.ب. ٢٣٨٠ أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة هاتف ٦٣١٤٤٦٨ ٢ ٩٧١+
فاكس ٦٣١٤٤٦٢ ٢ ٩٧١+

دار الآداب للنشر والتوزيع بيروت ـ لبنان، ساقية الجنزير ـ بناية بيهم ص. ب. ١٢٣ ـ ٤١٢٣ ـ ١١
هاتف: ٨٦١٦٣٣ ١ ٩٦١+ ٧٩٥١٣٥ ١ ٩٦١+ فاكس ٨٦١٦٣٣ ١ ٩٦١ +
e-mail:d_aladab@cyberia.net.lb

ISBN: **978-9953-89-103-3**

هذه الترجمة العربية لكتاب: Collected Stories

عجب عجاب[1] Lo!

وقف الرئيس جامدًا عند باب غرفة الملابس، مرتديًا بزّته كاملة ما عدا الحذاء. كانت الساعة تشير إلى السادسة والنصف صباحًا، والثلج يهطل في الخارج، فوقف يتأمّله نحو ساعة من وراء النافذة. وها هو يقف بجوربيه خلف الباب المفضي إلى الرواق، محنيًا قامته الطويلة كأنّما يصيخ السمع، وقد ارتسم على محيّاه قلق بالغ، هو القلق نفسه الذي لم يفارقه منذ نحو ثلاثة أسابيع. كانت تتدلّى من يده مرآة يد باذخة، فرنسيّة التصميم، من اللائق أن نراها على نضد الزينة الخاصّ بامرأة لا في أيّ مكان آخر، لا سيّما أنّه ما من امرأة يمكن أن تستعملها في تلك الساعة المبكرة من أيّام فبراير.

أخيرًا، أمسك مقبض الباب، وفتحه بمقدار إنشات قليلة محاذرًا ألاّ ينمّ عنه أيّ صرير، ثم دسّ رأسه من الشقّ ورأى العظمة

---

(١) عجب عجاب: عن هذه القصّة يكتب إدموند فولبي: «لو أنّها ظهرت في الستينيّات (من القرن العشرين) حين تظاهرت الجماهير الأميركيّة احتجاجًا على حرب فييتنام... لبدت القصّة مستوحاة مباشرة من هذه الأحداث». لكنّها كتبت عام ١٩٣٣ ونشرت في «ستوري» في ١٩٣٤. يعتبرها لويس دابني «أوّل قصّة أميركيّة تتّخذ من مواجهة سياسيّة تتطلّب تفاوضًا حبكة لها».

مرميّة على سجّادة الرواق السميكة. كانت عظمة مطبوخة، ضلعًا علقت به كتل صغيرة من اللّحم عليها، وإن على نحو خفيف، آثار أسنان بشريّة في قضمات متداخلة اتّخذت شكل الهلال. من شقّ الباب نفسه تناهت إلى مسامعه الأصوات أيضًا. ظلّ حريصًا على ألاّ يصدر أيّ صوت وهو يخرج المرآة قليلاً من الباب المشقوق. لبرهة لمح وجهه في المرآة فتأمّله بنوع من عدم التصديق البارد — إنّه وجه المحارب الباسل، ذلك الحكيم الحصيف الذي لا يعرف الزلل في توقّع أفعال البشر والسيطرة عليها، والذي يجد نفسه الآن غارقًا في عجز طفل حائر. أمال المرآة قليلاً بعد حتى يتمكّن من رؤية الرواق منعكسًا فيها. عندئذ رأى رجلين يقتعدان السجّادة مثلما يتواجه شخصان على ضفّتي نهر. لم يكن يعرف هذين الوجهين، وإن عرف الوجه(١)، إذ إنّ صورته لم تفارقه نهارًا، ولا فارقت أحلامه ليلاً منذ ثلاثة أسابيع. إنّه ذلك الوجه المربّع القاتم المفلطح بعض الشيء، الوجه المونغولي(٢)، المتجهّم، الغامض، السرّي الذي لا يكشف شيئًا من نوايا صاحبه. ولطالما رأى هذا الوجه حتى تخلّى عن محاولة عدّ المرّات أو تقدير العدد؛ حتى في هذه الأثناء وهو يرى الرجلين يجلسان القرفصاء في المرآة، ويسمع صوتيهما

---

(١) الوجه العامّ، وجه الهندي الأحمر الذي، بالنسبة إلى الرئيس، يملك مواصفات عامّة لا تجعل وجهًا يختلف عن آخر.

(٢) المقصود البلد، مونغوليا، لا الحالة الخلقيّة.

المكتومين، فقد أحسّ، ربّما في سهوة ما بين النعاس والإجهاد، أنّه ينظر إلى وجه واحد فقط.

كان كلّ منهما يعتمر قبّعة من الفراء ويلبس معطفًا جديدًا من الصوف، وفي ما عدا التفصيل الثانوي المتعلّق بعدم ارتدائهما صديريًّا وياقة، فقد كانا متأنّقين بالكامل حتى الخاصرة، وإن كان الوقت ما يزال مبكرًا بعض الشيء حتى يحلّ ضحى النهار. لكن من الخاصرة نزولاً، كانت ثيابهما تنتهك كل حسّ بالذوق والأناقة. فنظرة واحدة إليهما تجعل المرء يحسبهما خارجين للتوّ من إنجلترا البيكويكيّة[1]، ناهيك عن أنّ سرواليهما التحتيين الضيّقين وفاتحي اللون لا ينتهيان بأحذية هسيانيّة[2] طويلة، ولا بأيّ أحذية على الإطلاق، بل بأقدام قاتمة حافية. ورأى على الأرض، بجانب كلّ واحد منهما، صرّة من القماش الغامق لُفّت بعناية، وزوجين جديدين من الأحذية، وُضع كلّ زوج منهما مقابل الثاني كأنّما ينتعلهما جنديّان خفيّان. فجأة، ومن غطاء سلّة مصنوعة من أماليد البلّوط

(١) إنجلترا البيكويكيّة: نسبة إلى شخصيّة «بيكويك» في رواية تشارلز ديكنز «أوراق بيكويك» (١٨٣٦)، وقد بات هذا الاسم صفة للشخص الساذج الأخرق.

(٢) الحذاء الهسياني Hessian نوع من الأحذية الرجّاليّة الطويلة التي كانت شائعة في إنجلترا في القرن التاسع عشر. وهنا مجدّدًا إشارة إلى شخصيّة «بيكويك» الديكنزيّة.

الأبيض، وموضوعةٍ بجانب أحد الرجلين، برز رأس ديك مصارعة يشبه الأفعوان، لمعت في المرآة الباهتة عينه الصفراء المدوّرة الهائجة. ومن هناك جاء الصوتان، جذلين محتشمين، هامسين:

«لم يفدك كثيرًا وجود الديك معك هنا».

«هذا صحيح. لكن من يعرف؟ بالتأكيد ما كان في وسعي تركه في المنزل مع أولئك الهنود الملاعين الكسالى. تعرف جيّدًا أنّني كنت سأجده، حين أرجع، منتوف الريش بالكامل. لكن من المزعج أن أضطر لحمل هذا القفص ليل نهار».

«لو أردت رأيي فإنّني أجد هذه المسألة في غاية الإزعاج».

«معك حقّ. أن نقبع هنا خارج هذا الباب طوال الليل بلا سلاح ولا أيّ شيء. افترض أنّ أشرارًا أو سواهم حاولوا اقتحام الغرفة في أثناء الليل، فلا أعرف عندئذ ماذا سنفعل. أعرف أنّني لست راغبًا في دخول الغرفة».

«لا أحد يرغب في ذلك. إنّها مسألة شرف».

«شرف من؟ شرفك؟ شرفي؟ شرف فرانك ويديل؟».

«شرف الرجل الأبيض. أنت لا تفهم البيض. إنّهم كالأطفال، عليك التعامل معهم بحرص لأنّك لا تعرف البتّة ما ستكون خطوتهم التالية. وإذا كانت الأعراف تنصّ على أن يقبع الضيوف هنا خارج باب هذا الرجل طوال الليل في البرد، فعلينا فعل ذلك فحسب. إلى

ذلك، ألا تفضّل المكوث هنا على أن تكون مع البقيّة هناك في الثلج في واحدة من تلك الخيم اللعينة؟».

«معك حقّ. يا له من طقس. يا لها من بلاد. لا أقبل بها ولو وهبوها لي».

«بالطبع لن تقبل. لكنّ البيض هم هكذا: لا حسبان عندهم للذوق. لذا، ومهما طال مكثنا هنا، فإنّنا مضطرّان إلى التصرّف مثلما يعتقد هؤلاء القوم أنّه يجدر بالهنود الحمر أن يتصرّفوا. لأنّنا لا نعرف ماذا يمكن أن نقول أو نفعل فقد يشعرون بالإهانة أو الخوف. مثل اضطرارنا إلى التكلّم بكلام البيض طوال الوقت...».

سحب الرئيس المرآة إلى الداخل وأقفل الباب ببطء شديد. مجدّدًا وقف ساكنًا جامدًا في وسط الغرفة، مطرق الرأس، شاردًا، حائرًا، لكن صلبًا، فليست هذه هي المرّة الأولى التي يواجه فيها الصعوبات؛ أمّا منبع حيرته فهو أنّه لا يواجه عدوًّا في ميدان مفتوح، بل يجد نفسه محاصرًا في مكتبه رفيع المقام هذا، يحاصره أولئك الذين يعتبرونه، قانونيًّا على الأقلّ وإن ليس بتفويض إلهي، أباهم. شعر، في ذلك الصمت الشتوي المطبق، أنّه يخترق الجدران، ويتوحّد مع المقرّ الرئاسي الجليل الساهر[1]. غير مرئي، شعر أنّه يعيش حالاً من الرعب الذاهل من كلّ واحدة من

---

(١) البيت الأبيض.

مجموعات ضيوفه الجنوبيّين ـ تلك المجموعة الصغيرة القابعة خارج بابه، والأخرى الضخمة في ساحة القصر التي يشبه أفرادها الوجوه المحفورة في حجارة هذا المبنى الدائري الصلب الذي هو التجسيد الحيّ لكبرياء الأمّة الشابّة ـ في قبّعاتهم الفرو الجديدة ومعاطفهم الصوف وملابسهم التحتيّة القطنيّة، في سراويلهم المطويّة بعناية تحت أذرعتهم، وأحذيتهم الجديدة محمولة على الأيدي؛ قاتمون، لا زمنيّون، محتشمون، وساكنون، تحت الوجوه المذهولة والبزّات المليئة بالشارات الذهبيّة، والسيوف والنجوم، شارات الدبلوماسيّين الأوروبيّين(١).

قال الرئيس بصمت: «اللعنة. اللعنة. اللعنة». مشى في الغرفة وتوقّف لكي يحمل زوجي حذائه من مكانهما قرب الكرسي، ودنا من الباب المقابل. توقّف ثانية وفتح الباب بخفّة وحرص شديدين اعتاد عليهما خلال ثلاثة أسابيع خيفة أن يقتحم أحد ضيوفه الباب ويقتله. لم يجد خلف الباب سوى زوجته تنام وادعة في سريرها. اجتاز الغرفة، حاملاً الحذاء، متوقّفًا لكي يضع المرآة على نضد الزينة بين أشياء أخرى من المجموعة التي قدّمتها الجمهوريّة الفرنسيّة الجديدة هديّة لرئيس أسبق، ثم استأنف سيره على أطراف أصابعه، ودلف إلى قاعة الانتظار، حيث رفع رجل يلبس عباءة

---

(١) كما سنرى لاحقًا في سياق القصّة فإنّ هذه البزّات هي هديّة الرئيس إلى أفراد القبيلة الهنديّة المعسكرة في باحة البيت الأبيض.

طويلة رأسه نحوه ثم نهض على قدميه، وفي قدميه جوربان أيضًا. تبادلا النظرات برصانة. ثم سأل الرئيس الرجل بصوت خفيض:

«أكل شيء على ما يرام؟».

«أجل أيّها الجنرال»[١].

«جيّد، هل...».

أخرج الرجل عباءة أخرى طويلة. «حسن. حسن»، قال الرئيس. وطرح العباءة على كتفيه قبل أن يتحرّك الآخر لمساعدته. «والآن أعطني الـــ...». هذه المرّة استبقه الآخر، وناوله القبّعة التي اعتمرها الرئيس ثم أخفضها إلى وجهه. غادرا الغرفة على أطراف أصابعهما، وفي يد كلّ منهما حذاؤه.

كان السلّم الخلفي باردًا، فتكوّرت أصابع أرجلهما وهي تطأ درجاته، وارتفع بخار أنفاسهما في دوائر حول رأسيهما. هبطا السلّم بتؤدة وقعدا على الدرجة السفلى وانتعلا حذاءيهما.

كان الثلج ما يزال يهطل في الخارج؛ وبدا أنّ ندف الثلج غير المرئيّة في السماء البيضاء، وعلى الأرض المكسوّة بالثلوج، قد تجسّدت بعنف مباغت عند بوّابات الإصطبلات المعتمة. بدت كلّ جنبة في حديقة القصر أشبه ببالون أبيض يهبط بخفّة وجمود فوق

---

(١) الرئيس جاكسون الذي كان جنرالاً قبل وصوله إلى سدّة الرئاسة.

الأرض البيضاء، وبين هذه الجنبات تناثرت بنوع من الترتيب المنتظم نحو اثنتي عشرة كومة أشبه بالخيام، ترتفع منها أعمدة الدخان نحو الثلج الذي لا رياح تعوقه، كأنّما الثلج نفسه يشتعل بهدوء. ألقى الرئيس عليها نظرة عجلى متجهّمة، ثم قال لمرافقه «تقدّم»، فمشى هذا بخطوات سريعة، مطرق الرأس، مغطّيًا وجهه بعباءته، ودخل إلى الإصطبل. انتهت الأيّام التي كان الرئيس يخاطب الجندي بكلمة «تقدّم» هذه، لكنّ الرئيس كان قريبًا منه إلى حدّ أنّ أنفاسهما شكّلت غيمة واحدة. وانتهى اليوم الذي كانت غالبًا ما تستعمل فيه كلمة «فرار». لكنّهما ما كادا يدخلان إلى الإصطبل حتى ظهرا ثانية، وقد امتطى كلٌّ منهما جواده، واجتازا المرجة، مرورًا بالخيام المغطّاة بالثلوج، إلى البوّابات التي تفضي إلى تلك الجادّة التي ما زالت في طور الإنشاء، والتي ستحتفل بفخر مستقبلاً بالصفوف المهيبة من شباب الأمّة، وسط إعجاب ودهشة العالم القديم وحسده. أمّا في تلك اللحظة فقد كان يحتلّ البوابات متنبّئون حقيقيّون بالمستقبل.

«انتبه»، قال الرجل الآخر، وهو يرتدّ إلى الخلف. انتحيا جانبًا ــ وغطّى الرئيس وجهه بالعباءة، مفسحًا في المجال لكي تمرّ المجموعة: أولئك الرجال قاتمو البشرات مربوعو القامات، بقبّعاتهم الفرو، ومعاطفهم الرسميّة، وأرجلهم الصلبة المغطّاة من الفخذ حتى الركبة بجوارب من الصوف. اخترقت ثلاثة جياد الحشد وقد

طُرحت على ظهورها ستّة غزلان ميتة. أكمل الحشد طريقه دون أن يعيروا الرجلين التفاتة.

قال الرئيس: «اللعنة. اللعنة. اللعنة»؛ ثم بصوت عال: «لقد كان صيدكم وافرًا».

حانت نظرة خاطفة من أحد أفراد المجموعة نحوه، وقال بصوت جذل وسريع: «وهو كذلك».

انطلق الجوادان مجدّدًا. «لم أرَ معهم أيّ أسلحة»، قال الرجل الآخر.

«أجل»، قال الرئيس بتجهّم، «يجب أن أنظر في هذا الأمر أيضًا. لقد أصدرت أوامر صارمة...». ثم أضاف باهتمام: «اللعنة. اللعنة. هل يحملون معهم بناطيلهم حين يذهبون إلى الصيد. ألديك فكرة عن الأمر؟».

بثياب النوم وبلحية غير حليقة، جلس الوزير إلى مائدة الإفطار محاطًا بأطباق لم يذق منها شيئًا، بدا على محيّاه الامتعاض وهو يحملق في الصحيفة الموضوعة على الطبق الفارغ أمامه. أمام المدفأة وقف رجلان ــ أحدهما جندي من سلاح الفرسان لم يذب الثلج بعد عن عباءته، جلس على مقعد خشبي طويل، بينما الآخر، الذي من الواضح أنّه مساعد الوزير، ظلّ واقفًا. هبّ الجندي منتصبًا حين دخل الرئيس ومرافقه، «اجلس، اجلس»، قال له

الرئيس. واتّجه إلى المائدة وهو ينضو عنه العباءة التي أخذها منه المساعد. «قدّم لنا بعض الإفطار»، قال الرئيس، «لا نجرؤ على الذهاب إلى البيت». وجلس. قدّم له الوزير الطعام شخصيًّا. سأله الرئيس: «ماذا هنالك الآن؟».

«أتسأل؟» قال الوزير. ثم حمل الصحيفة مجدّدًا وأخذ يحملق بها، «من بنسلفانيا هذه المرّة». وهوى بالصحيفة فوق راحة يده، «أوّلاً ماريلاند، نيويورك، والآن بنسلفانيا؛ من الواضح أنّ الشيء الوحيد الذي يستطيع إيقافهم هو أن يذوب الصقيع وتجري المياه ثانية في نهر بوتوميك». صاح بحدّة وانفعال، «شكاوى، شكاوى، شكاوى: هذا مزارع قرب غيتسبرغ. كان عبده الزنجي في الحظيرة يحلب البقرة على ضوء القنديل بعد هبوط الظلام، حين — بلا شكّ ظنّ الزنجي أنّهم مائتان، ما دام المزارع قد قدّرهما بعشرة أو أحد عشر ـــ قفزوا فجأة من العتمة معتمرين القبّعات، وشاهرين الخناجر وهم عُراة من الخصر نزولاً. والنتيجة: تدمير الحظيرة ومقتل البقرة واحتراق الشعير بنيران القنديل الذي تمّ تحطيمه؛ كما شوهد العبد يفرّ من المكان نحو الغابات، حيث بالتأكيد قضى خوفًا أو التهمته الحيوانات المفترسة. التعويض المترتّب على حكومة الولايات المتّحدة الأميركيّة: للحظيرة والشعير مائة دولار، للبقرة خمسة عشر دولارًا، للعبد مائتا دولار. ويطلب الرجل أن يُدفع له التعويض بالذهب».

قال الرئيس وهو يأكل بسرعة: «هكذا إذن؟ أحسب أنّ الزنجي والبقرة اعتبرهم من الجنود المرتزقة».

قال الجندي: «أتساءل ما إذا ظنّوا البقرة غزالاً».

قال الرئيس: «أجل، هذه مسألة أخرى أودّ أن...».

قال الوزير: «ومن الذي لا يتوهّمهم أيّ شيء على سطح الأرض أو في جوفها؟ إنّ ساحل الأطلسي برمّته، إلى شمال نهر بوتوميك، يحتشد بكائنات قبّعات الفرو والمعاطف والجوارب الصوف، إنّهم يخيفون النسوة والأطفال ويشعلون الحظائر ويهرّبون العبيد ويقتلون الغزلان...».

قال الرئيس: «أجل، أريد أن أقول شيئًا حيال هذا. لقد صادفت زمرة منهم في طريقي إلى هنا. كان معهم ستّة غزلان. أظنّ أنّني أصدرت أوامر صارمة بعدم السماح لهم بحمل البنادق».

مجدّدًا تكلّم الجندي: «إنّهم لا يستعملون البنادق».

فقال الرئيس: «ماذا؟ لكنّني رأيت بنفسي...».

«لا يا سيّدي، إنّهم يستعملون السكاكين. يقومون بتعقّب الغزال ثم ينقضّون عليه ويجزّون رقبته».

«ماذا؟».

«لقد رأيت أحد الغزلان التي اصطادوها يا سيّدي، ولم يكن مصابًا بأيّ عيار ناري سوى أنّ عنقه قد جُزّ بالسكّين بضربة واحدة».

مجدّدًا قال الرئيس: «اللعنة! اللعنة! اللعنة!». ثم صمت. وراح الجندي يشتم. بينما راح الآخرون يصغون بتجهّم وقد طأطأوا رؤوسهم، ما عدا الوزير الذي حمل صحيفة أخرى. وقال الرئيس: «لو أنّك تقنعهم فحسب بارتداء بناطيلهم، على الأقلّ في أفنية البيت الأبيض».

نظر إليه الوزير وشعره منفوش مثل ببغاء ككتوه أخضر: «أنا يا سيّدي؟ أنا أقنعهم؟».

«لمَ لا؟ أوليسوا تابعين لوزارتك؟ أنا لست إلاّ الرئيس. لقد وصل الأمر إلى درجة أنّ زوجتي لم تعد تجرؤ على الخروج من غرفة النوم، ناهيك عن استقبال صديقاتها. كيف أشرح الأمر للسفير الفرنسي على سبيل المثال، لماذا لم تعد زوجته تتجرّأ أن تزور زوجتي؟ لأنّ أروقة البيت ومداخله مليئة بهنود التشيكوسو أنصاف العُراة، النائمين على الأرض، أو المنشغلين بقضم نصف ضلع من اللحم؟ حتى أنا مضطرّ للفرار من مكتبي واستجداء الإفطار، بينما الممثّل الرسمي للحكومة ليس لديه ما يفعله سوى...».

صاح الوزير بحنق: «... أن يشرح كل صباح لوزارة الخزانة لماذا يجب أن يحصل مزارع هولندي آخر في بنسلفانيا أو نيويورك على ثلاثمائة دولار ذهبًا تعويضًا عن دمار مزرعته وماشيته، وأن يشرح لوزارة الخارجيّة أنّ العاصمة ليست محاصرة من قبل شياطين آتين مباشرة من الجحيم، وأن يشرح لوزير الدفاع لماذا تمّ تخريب عشر خيم عسكريّة جديدة بالسكاكين بغرض تهوئتها...».

قال الرئيس بصوت معتدل: «لاحظت هذا أيضًا، لقد نسيت ذلك».

«ها. لقد لاحظت سعادتك»، قال الوزير بحنق، «سعادتك رأيت ذلك ثم نسيته. أنا لم أره ولم يُسمح لي بنسيانه. والآن تتساءل سعادتك لماذا لا أقنعهم بارتداء البناطيل».

قال الرئيس بتوجّس: «يبدو أنّهم قد يرضون بذلك، يبدو أنّ الملابس التي قدّمناها لهم نالت رضاهم. لكن لا حسبان للذوق». استأنف الأكل. ثم نظر إليه الوزير، وَهَمّ بالكلام، لكنّه اكتفى بالصمت، ناظرًا إلى الرئيس المنشغل بالأكل وقد ارتسم على وجهه ملمح غريب، واسترخى وجهه الحانق كما لو أنّه فرّغ نفسه من الهواء. ثم تكلّم بنبرة فاترة ورائقة، وشَخَصَ الثلاثة الآخرون بفضول نحو الرئيس.

قال الوزير: «أجل، لا اعتبار للذوق. فالمعلوم أنّه حين تقدّم لشخص ما زيًّا ما من باب التقدير والشرف، دعك عن مسألة الذوق، ومن قبل زعيم قبيلة معروفة، فمن واجبه أن...».

«هذا ما فكّرت به»، قال الرئيس ببراءة، ثم توقّف عن مضغ الطعام وقال بحدّة «ماذا؟»، رافعًا رأسه. أشاح الثلاثة الأقلّ رتبة نظرهم سريعًا، أمّا الوزير فاستمرّ بالنظر إلى الرئيس من دون أن يفارق وجهه ذلك الفتور السرّي «ماذا تقصد بحقّ الجحيم؟». كان يدرك مقصد الوزير، مثلما أدركه الثلاثة الآخرون. بعد يوم أو يومين من وصول ضيفه المباغت، وبعد أن زالت إلى حدّ ما الصدمة الأولى، أصدر الرئيس مرسومًا بتخصيص الملابس الجديدة لهم. أصدر أمرًا لصنّاع الملابس والقبّعات مثلما يأمر صنّاع الأسلحة والرصاص في الطوارئ الحربيّة، وتكفّل بدفع التكاليف من جيبه الخاصّ. وقد تمكّن من تقدير عددهم، الرجال على الأقلّ، وبغضون ثمانٍ وأربعين ساعة، حوّل مظهر ضيوفه الجدّي الهجين إلى مظهر لائق على الأقلّ. بعد يومين، قام الضيف ـ وهو نصف تشيكوسو ونصف فرنسي، رجل مربوع سمين له ملامح رجل عصابات غاسكوني[1] وسلوك غلام مدلّل، يضع سوارًا قذرًا حول معصمه وآخر حول رقبته، يطارده منذ ثلاثة

---

(١) نسبة إلى غاسكوني Gascony: اسم إقليم سابق في جنوب غرب فرنسا.

أسابيع في صحوه ونومه، ولا يستطيع فكاكًا منه ــ بزيارة رسميّة له، وهو ما يزال مع زوجته في الفراش عند الخامسة فجرًا، وكان اثنان من خدمه يحملان صرّة، يتبعهما ما بدا للرئيس على الأقلّ مائة شخص من رجال وأطفال ونساء، احتشدوا بصمت في غرفة النوم، بهدف واضح وهو أن يشاهدوه وهو يرتدي الزيّ. ذلك أنّه كان زيًّا ــ حتى في خضمّ إحساسه بالرعب الناشئ عن الصدمة، وجد الرئيس نفسه يتساءل بشدّة في أيّ مكان من العاصمة عثر فيدال أو ويديل على هذا الزيّ الذي ليس سوى كتلة، شبكة، من الشرائط الذهبيّة ــ ضفادع، شرائط زينة، وشاح، وسيف ــ علّقت بشكل مهلهل على قطعة قماش خضراء فاتحة، هي بمثابة ردّ الجميل على هديّته السابقة. هذا ما عناه الوزير، الذي راح الرئيس يحملق فيه، بينما أشاح الرجال الثلاثة بأنظارهم نحو المدفأة. «فلتقل دعاباتك»، قال الرئيس، «قلها سريعًا. هل انتهيت من الضحك الآن؟».

قال الوزير: «أنا أضحك؟ علامَ؟».

«جيّد»، قال الرئيس. وأبعد الأطباق عنه، «إذن يمكننا التكلّم في المسائل المهمّة؟ هل لديك الوثائق التي قد تحتاج إلى الرجوع إليها؟».

اقترب سكرتير الوزير: «هل أحضر الأوراق الأخرى يا سيّدي؟».

«الأوراق؟»، قال الوزير؛ مرّة أخرى بدأ ينفش شعره، «بحقّ الجحيم، ما حاجتي إلى الأوراق؟ وهل كان لي من شغل سواها منذ ثلاثة أسابيع؟».

قال الرئيس: «جيّد جيّد، أفترض أنّك راجعت المسألة بإيجاز في حال كنتُ نسيت شيئًا آخر».

قال الوزير: «سعادتك محظوظ بحقّ، إذا تمكّنت من النسيان» وأخرج من جيب منامته نظّارة معدنيّة. لكنّه بالكاد استعملهما لينظر ثانية إلى الرئيس بحنق «هذا الرجل، ويديل، أو فيدال أو أيًّا يكن اسمه ــ هو وعائلته أو عشيرته أو أيًّا تكن ــ يدّعي امتلاك كلّ ذلك الجانب من المسيسيبي الذي يقع إلى الطرف الغربي من النهر موضوع المشكلة. أوه، وهو يملك صكّ الملكيّة: فقد حرص والده ذاك من نيو أورلينز على ذلك ــ حسنًا، حدث أنّه في مقابل منزله أو مزرعته، يقع المعبر النهري الوحيد على امتداد نحو ثلاثمائة ميل».

قال الرئيس بنفاد صبر: «أعرف هذا كلّه، بطبيعة الحال يؤسفني الآن أنّه ما من وسيلة لعبور النهر أساسًا. لكن عدا ذلك لا أرى أيّ...».

قال الوزير: «ولا هم كانت لديهم مشكلة، حتى جاء الرجل الأبيض».

قال الرئيس: «آه، الرجل الذي كان...».

رفع الوزير يده. «اسمع. لقد بقي نحو شهر معهم، متظاهرًا بالصيد، متغيّبًا عن الأنظار طوال اليوم، لكن من الواضح أنّ ما كان يفعله هو التأكّد من أنّه ليس من معبر نهري آخر قريب. لم يكن يجلب أيّ صيد معه؛ وأتخيّل أنّهم ضحكوا عليه كثيرًا على طريقتهم الخاصّة».

قال الرئيس: «أجل، لا بدّ من أنّ ويديل وجد هذا مسلّيًا جدًّا».

«... أو فيدال ــ أيًّا كان اسمه»، قال الوزير بتوتّر «لا يبدو أنّه يعرف أو يهتمّ شخصيًّا باسمه».

قال الرئيس: «أكمل، كنت تتكلّم عن المعبر النهري».

«أجل. ثم ذات يوم، بعد شهر من مجيئه، عرض الرجل الأبيض شراء بعض أرض ويديل، فيدال، ويديل، اللعنة...».

«سمّه ويديل»، قال الرئيس.

«... عرض الرجل الأبيض شراء قطعة أرض من ويديل. لم تكن بالكبيرة، بالكاد توازي حجم غرفة، قبض منه فيدال أو ويديل عشرة أضعاف سعرها. ليس رغبة في الكسب كما تعرف، فكان يمكن أن يعطي الرجل الأرض كهديّة أو يخسرها معه في مباراة ما، إذ لم يخطر لأيّ منهما أنّ الأرض الصغيرة التي أرادها الرجل

احتوت على المعبر الوحيد المتوافر للدخول إلى النهر أو الخروج منه. لا ريب في أنّ المساومة على السعر امتدّت أيّامًا أو ربّما أسابيع، كنوع من اللعبة لتمضية العصريات والأمسيات المتبطّلة، بينما الجميع يضحكون ملء قلوبهم من المشهد البهيج. لا بدّ أنّهم ضحكوا كثيرًا، لا سيّما حين دفع الرجل السعر لويديل، لا بدّ أنّهم ضحكوا كثيرًا في ما بعد حين رأوا الرجل الأبيض يبني تحت الشمس سياجًا حول أرضه، وبالتأكيد لم يخطر لهم البتّة أنّ ما فعله الرجل الأبيض هو أنّه وضع سياجًا حول المعبر الوحيد إلى النهر».

قال الرئيس مجدّدًا بنفاد صبر: «أجل، لكنّني لم أفهم بعد...».

مجدّدًا رفع الوزير يده، على نحو تفخيمي «ولا هم فهموا؛ ليس قبل مجيء المسافر الأوّل وعبوره النهر. كان الرجل الأبيض قد أنشأ هناك بوّابة».

قال الرئيس: «أوه».

«أجل. والآن لا بدّ من أنّهم تسلّوا بمشاهدة الرجل الأبيض جالسًا الآن تحت السقيفة ـــ كان قد رفع جيبًا من جلد الغزال على سارية لكي يلقي العابرون فيها أموالهم، والبوّابة نفسها صُنعت بشكل يتيح له فتحها وإقفالها مستعينًا بالحبل وهو جالس على شرفة

بيته المكوّن من حجرة واحدة من دون أن يضطرّ حتى إلى القيام عن مقعده ــ والبدء بتوسيع أملاكه، بما في ذلك شراء حصان».

قال الرئيس: «آه، الآن بدأت الصورة تتّضح».

«أجل. وتسارعت الأحداث بعدئذ. وحصل سباق بين جواد الرجل الأبيض وجواد ابن أخي الزعيم: البوّابة مقابل ألف فدّان من الأرض. وقد خسر جواد ابن الأخت. وتلك الليلة...».

قاطعه الرئيس: «آه، فهمت، تلك الليلة الرجل الأبيض قُتـــ..».

«فلنقل إنّه مات، هكذا جاء الوصف في تقرير مفوّض الحكومة. رغم أنّه أضاف مفسّرًا أنّه يبدو أنّ موت الرجل الأبيض نجم عن فلق في الجمجمة، لكن هذا الأمر ليس موضوعنا».

قال الرئيس: «لا، موضوعنا هو احتشادهم هناك في البيت منذ ثلاثة أسابيع». رجال ونساء وأطفال ومعهم عبيد من الزنوج، توافدوا على العربات منذ ذلك اليوم في نهاية الخريف، منذ اليوم الذي ظهر فيه مفوّض الحكومة في منطقة قبيلة التشيكوسو لكي يستعلم عن موت الرجل الأبيض. قطعوا ألفًا وخمسمائة ميل، عبر مستنقعات الشتاء والأنهر، عبر التضاريس الشرقيّة للقارّة، يقودهم طاغية بطريرك سمين ومتبلّد في عربة، نائمًا، وابن أخته بجانبه،

وهو يضع يده السمينة التي تعجّ بالخواتم على ركبة ابن الأخت لإبقائه ممسكًا بالزمام. سأله الرئيس: «لماذا لم يوقفه المفوّض؟».

صاح الوزير: «يوقفه؟ أخيرًا ساومهم المفوّض إلى حدّ أن يسمح بمحاكمة ابن الأخت فورًا، من قبل الهنود أنفسهم، ناويًا أن يدمّر البوّابة، ما دام أحدٌ لم يكن يعرف الرجل الأبيض على أيّ حال. لكن لا. يتوجّب إحضار ابن الأخت لكي يمثل أمامك، لكي تتمّ تبرئته أو إدانته وسجنه».

«لكن لمَ لم يمنع العميل بقيّتهم من المجيء؟ لمَ لم يبق البقيّة...».

صاح الوزير مجدّدًا: «يمنعهم؟ اسمع. لقد انتقل إلى هناك وعاش بين ظهرانيهم، لكن ويديل أو فيدال، اللعنة! أين كنت.. أجل، طلب إليه ويديل أن يعتبر البيت بيته؛ وسرعان ما صار كذلك. إذ أنّى له أن يعرف أنّ أعداد الناس في المزرعة تقلّ صبيحة كلّ يوم؟ هل كنت لتعرف؟ هل كنت لتعرف الآن؟».

قال الرئيس: «ما كنت لأحاول، كنت أعلنت فحسب يوم عيد شكر وطني. فإذن تسلّلوا ليلاً».

«أجل. ويديل والعربة وبضع عربات علف مضت أوّلاً؛ كان قد مضى على رحيلهم شهر قبل أن يدرك العميل أنّه صبيحة كلّ يوم يقلّ العدد الباقي بطريقة ما. كانوا ينسلّون ليلاً على العربات،

عائلات بأكملها، أجداد وآباء وأطفال وعبيد وكلاب وأغراض، وكلّ شيء. ولمَ لا؟ لِمَ يحرمون أنفسهم من هذه العطلة على حساب الحكومة؟ لِمَ يفوّتون على أنفسهم، بمجرّد كلفة بسيطة هي قطع ١٥٠٠ ميل عبر بلاد مجهولة في عزّ الشتاء، امتياز ومتعة تمضية بضعة أسابيع أو ربّما شهر بقبّعات فرو جديدة ومعاطف وثياب تحتيّة، في بيت الأب الأبيض العطوف؟».

قال الرئيس: «أجل، وهل قلت له بأنّنا لم نوجّه أيّ تهمة ضدّ ابن أخته؟».

«أجل. وكذلك إذا عادوا إلى ديارهم، فالمفوّض نفسه سيعلن براءة ابن الأخت على الملأ، ضمن أيّ طقس يعتبرونه مناسبًا. وأجابه ويديل قائلاً.. كيف صاغ كلماته؟». راح الوزير يتكلّم بنبرة بهيجة شبه مرحة، في محاكاة شبه حرفيّة للرجل الذي يكرّر كلامه: «كلّ ما نريده هو العدالة. إذا كان هذا الفتى المغفّل قد قتل رجلاً فأظنّ أنّ علينا معرفة ذلك».

قال الرئيس: «اللّعنة. اللّعنة. اللّعنة، حسنًا، سنوقف التحقيق. أحضرهم إلى هنا ولننه الأمر معهم».

أجاب الوزير: «إلى هنا؟ إلى منزلي؟».

«لِمَ لا؟ لقد استضفتُهم لثلاثة أسابيع؛ تستطيع على الأقلّ استضافتهم ساعة»، التفت نحو مرافقه، «أسرع. أخبرهم أنّنا ننتظرهم هنا حتى نحاكم ابن الأخت».

جلس الرئيس والوزير وراء الطاولة التي رُفع عنها الطعام، ونظرا إلى الرجل الذي يقف قبالتهما مؤطّرًا بالباب المفتوح الذي دخل منه، ممسكًا بيد ابن أخته مثل شخص يُدخل للمرّة الأولى أحد أقربائه إلى متحف متروبوليتان للشموع. راحا يتأمّلان الرجل الناعم السمين الواقف أمامهما بوجهه الناعم الرقيق الجامد، وأنفه الطويل الشبيه بأنف راهب، وأطرافه الضخمة، الخدّان المتهدّلان، بلون الشوكولا بالحليب، فوق وشاح متّسخ بطل طرازه منذ خمسين عامًا؛ وكان فمه سمينًا، صغيرًا، وشديد الحمرة. بيد أنّه في مكان ما وراء تعابير وجهه التي تنمّ عن يقينيّة ما، كما وراء صوته الفاتر ومظهره شبه الأنثوي، كان يكمن شيء آخر: شيء ينمّ عن العزم والحدّة والمباغتة والطغيان. وقفت وراءه مجموعة الخدم الصامتين الرصينين، غامقي البشرات بقبّعات فرو وعباءات وجوارب صوف، وكلّ واحد منهم يحمل سرواله مطويًّا تحت إبطه.

ظلّ صامتًا لبرهة، منقّلاً بصره بين الوجوه حتى رأى الرئيس. وقال بصوت ناعم: «هذا ليس بيتك؟».

أجابه الرئيس: «لا، إنّه منزل هذا الزعيم الذي عيّنته بنفسي وزيرًا للعدل لكي يحكم بيني وبين شعبي الهندي. وسوف يحقّق العدل لكم».

انحنى الرجل قليلاً: «هذا كلّ ما نرجوه».

«حسن»، قال الرئيس. كانت على الطاولة أمامه محبرة وريشة كتابة ومرملة، والكثير من الأوراق مع أشرطة وأختام ذهبيّة، وإن لم يكن باستطاعة أحد أن يقول ما إذا كانت نظراته الطويلة الحادّة قد لاحظت وجودها أم لا. نظر الرئيس إلى ابن الأخت. شابّ، نحيل وقف ممسكًا بيده اليمنى يد خاله السمينة المليئة بالقماش، راح ينظر بصمت إلى الرئيس، بهدوء عميق ومتنبّه. غمس الرئيس الريشة في الحبر. «هل هذا هو الرجل الذي...».

قاطعه الرجل بحماسة: «الذي ارتكب هذه الجريمة؟ هذا ما قمنا بهذه الرحلة الشتويّة الطويلة من أجل اكتشافه. إذا كان قد ارتكبها، إذا لم يكن الرجل الأبيض قد سقط فعلاً عن صهوة حصانه وارتطم رأسه بحجر، فعندئذ ابن أختي هذا يجب أن ينال جزاءه. لا نظنّ أنّه من الصائب قتل رجل أبيض كأنّه من الشيروكي أو الكريك». أخذ يحملق بالشخصين المهمّين اللذين راحا يزعمان الكتابة على الأوراق الخرقاء أمامهما؛ لبرهة التقت عينا الرئيس بعينيه الناعستين فأشاح عنه. لكنّ الوزير رفع حاجبيه عاليًا وراح يحملق في الخال.

«كان يجدر بك أن تُجري سباق الخيول هذا في معبر النهر نفسه. فالمياه ما كانت لتخلّف مثل ذاك الجرح الغائر في جمجمة الرجل الأبيض».

رفع الرئيس رأسه بسرعة ناظرًا إلى الوجه الثقيل، السرّي، متفرّسًا في الوزير بترقّب قاتم. لكن مباشرة تقريبًا تكلّم الخال. «كان يمكن هذا. لكنّ ذلك الرجل الأبيض كان بكلّ تأكيد سيطلب مالاً من ابن أختي لكي يسمح له بعبور بوّابته». ثم ضحك ضحكة بهيجة، سارّة، ومحتشمة، «ربّما كان من الأفضل لهذا الرجل الأبيض لو أنّه سمح لابن أختي بالعبور مجّانًا. لكن هذا لم يعد موضوعنا الآن».

«لا»، قال الرئيس، بنبرة تكاد تتّسم بالحدّة، فنظروا إليه ثانية. حمل الريشة فوق الورقة. «ما الاسم الصحيح؟ ويديل أم فيدال؟».

مجدّدًا جاء الصوت المرح، ذي النبرة الثابتة، «ويديل أو فيدال. ما يهمّ بأيّ اسم ينادينا الزعيم الأبيض؟ لسنا إلاّ هنودًا، نذكر بالأمس وننسى غدًا».

كتب الرئيس على الورقة فأصدرت الريشة صريرًا ترافق مع صوت آخر: صوت خافت، ثابت، مكتوم، بدا يصدر من المجموعة الصامتة القاتمة وراء الخال وابن الأخت. رمّل الرئيس الورقة وطواها ونهض لبرهة راحوا خلالها ينظرون إليه ـ الجندي الذي

يقود الرجال في مناسبات أهمّ من هذه. «ابن أختك ليس مذنبًا بهذه الجريمة. إنّ الزعيم الذي عيّنته لكي يقيم العدل بيننا يطلب منه العودة إلى دياره وألاّ يفعل هذا ثانية البتّة، لأنّه في المرّة القادمة لن يكون مسرورًا».

تبدّد صوته في صمت مفاجئ؛ حتى خلال تلك اللحظة تحرّكت الجفون بتثاقل، بينما من الكتلة القاتمة خلفه صدر ذلك الصوت الخافت، الدائم، صوت الاحتكاك الصامت للصوف، مثل موج يتحرّك ببطء، ثم توقّفت هذه الحركة لوهلة. تكلّم الخال بنبرة تنمّ عن الصدمة وعدم التصديق: «ابن أختي حرّ؟».

«إنّه حرّ؟»، أجاب الرئيس. جالت نظرات الخال المشدوهة في أرجاء الغرفة.

«بهذه السرعة؟ وهنا؟ في هذا البيت؟ حسبت أنّه... لكن غير مهمّ». راحوا ينظرون إليه مجدّدًا، وجهه ناعم ملغّز، «لسنا إلاّ هنودًا، بالتأكيد هؤلاء البيض المشغولون ليس لديهم إلاّ القليل من الوقت للمسائل الصغيرة. ربّما قد سبّبنا لهم ما يكفي من الإزعاج».

سارع الرئيس إلى القول: «لا، لا، بالنسبة إليّ لا فرق بين شعبي الهندي وشعبي الأبيض». لكن مجدّدًا طافت نظرات الخال بصمت في أرجاء الغرفة؛ واقفين جنبًا إلى جنب، داهم الرئيس

والوزير الشعور بالخطر نفسه. بعد برهة قال الرئيس: «أين كنت تتوقّع عقد هذه الجلسة؟».

نظر إليه الخال، «سيضحكك ذلك. في جهلي اعتقدت أنّه حتى مسألتنا الصغيرة هذه ستنتهي في... لكن لا يهمّ».

قال الرئيس: «أين؟».

نظر الوجه الثقيل الساكن مجدّدًا إلى الرئيس، «سوف يضحكك الأمر، ورغم ذلك سأجيبك. في المنزل الأبيض الكبير تحت النسر الذهبي».

صاح الوزير: «ماذا؟ في الـــ...».

أشاح الخال نظره «قلت إنّ هذا سيضحكك. لكن لا يهمّ. سيكون علينا الانتظار على أيّ حال».

قال الرئيس: «الانتظار؟ انتظار ماذا؟».

«هذا مضحك حقًّا»، قال الخال. وضحك مجدّدًا، بصوته الساكن البارد، «المزيد من قومي على وشك الوصول. يمكننا انتظارهم، ما داموا سيرغبون أيضًا في رؤية هذا وسماعه». لم تتمّ عن أحد تنهيدة تعجّب، ولا حتى الوزير. فقط حدّقوا به بينما قال بصوته الساكن: «يبدو أنّ بعضهم أخطأ في المنطقة. لقد سمعوا اسم عاصمة الزعيم الأبيض، لكن قد تكون هناك بلدة أخرى في بلادنا تحمل الاسم عينه، وحين استعلم بعض القوم عن الطريق، تمّ

توجيههم خطأ وذهبوا إلى مكان آخر. الهنود الجهلة المساكين». ضحك بتسامح مرح وراء وجهه الناعس الملغّز. «لكن جاء رسول وأبلغنا أنّهم سيصلون في غضون هذا الأسبوع. ثم سنرى بشأن معاقبة هذا الفتى العنيد». وهزّ ذراع الفتى هزّة خفيفة. ولولا هذه الهزّة ما كان الفتى ليتحرّك، وهو يحملق في الرئيس بعينيه الحادّتين اللتين لا ترمشان.

للحظة طويلة ساد صمت لم يقطعه سوى صوت الاحتكاك الخافت الثابت الناجم عن مجموعة الهنود. ثم شرع الوزير بالكلام، بأناة، كأنّه يخاطب طفلاً «اسمع، إنّ ابن أختك حرّ طليق. هذه الورقة تفيد بأنّه لم يقتل ذلك الرجل الأبيض، وأنّ أحدًا لا يحقّ له باتّهامه ثانية، وإلاّ فسنغضب أنا والزعيم الأكبر هنا. يمكنه العودة إلى الديار الآن على الفور. فلتعودوا جميعًا إلى الديار فورًا. ألا يقال إنّ قبور أسلاف رجل ما لا تهدأ إطلاقًا في غيابه؟».

مجدّدًا ساد الصمت. ثم قال الرئيس: «إلى ذلك فإنّ البيت الأبيض تحت النسر الذهبي مشغول حاليًّا بمجلس من الزعماء ممّن هم أقوى منّي».

ارتفعت يد الخال الغارقة في القماش المتّسخ، وراحت سبّابته تهتزّ باعتراض لائم «لا تتوقّع حتى من هندي جاهل أن يصدّق هذا»، ثم أضاف من دون أيّ تغيير في نبرة صوته، ولم يعرف الوزير إلاّ لاحقًا حين أخبره الرئيس أنّ الخال لم يكن يوجّه كلامه

إليه، «وأولئك الزعماء سيحتلّون بلا شكّ ذلك البيت الأبيض لمدّة على ما أفترض».

قال الوزير: «أجل، حتى تذوب آخر ثلوج الشتاء بين الأزهار والعشب الأخضر».

قال الخال: «حسنًا، سننتظر إذن. وعندها يكون هناك متّسع من الوقت لكي يصل بقيّة القوم».

وهكذا حدث أنّه على تلك الجادّة التي ستكون عظيمة الشأن مستقبلاً، سار موكب العربات تحت الثلج الهاطل ببطء، تتقدّمه العربة التي تضمّ الرئيس والخال وابن الأخت، ويد الخال المليئة بالخواتم على ركبة ابن الأخت، تتبعها عربة أخرى تضمّ الوزير ومساعده، ويتبع هذه العربة صفّان من الجنود، يسيرون بين الكتلة الرصينة القاتمة من الرجال والنساء والأطفال المحمولين على الأيدي أو الماشين على أقدامهم. وهكذا حدث أنّه وراء مكتب المجلس التشريعي في تلك الحجرة التي احتضنت حلم المصير العظيم الذي يعلو على ظلم الأحداث وحماقات البشر، وقف الرئيس والوزير، بينما في الأسفل، محاطين بالمتلاعبين الأحياء بالقدر، الذين انتشرت بينهم الأشباح المهيبة للذين حلموا بهذا القدر، وقف الخال وابن الأخت، وخلفهم الكتلة القاتمة من الأنسباء والأصدقاء والمعارف الذين من بينهم نشأ ذلك الحفيف الخافت الناشئ عن احتكاك الصوف بالجلد. مال الرئيس على الوزير. وهمس في أذنه:

«هل المدفع جاهز؟ هل أنت واثق من أنّهم يستطيعون رؤية ذراعي من الباب؟ وافترض أنّ تلك الأسلحة اللّعينة انفجرت، فهي لم تُستعمل منذ استعملها واشنطن ضدّ كورنواليس[1]: هل سيعزلونني؟».

قال الوزير: «أجل».

قال الرئيس: «فليكن الله في عوننا إذن. أعطني الكتاب». ناوله الوزير الكتاب: «سونيتات بترارك»[2]، الذي اختطفه الوزير عن طاولته أثناء مروره. «فلنأمل أن أتذكّر ما يكفي من اللاتينيّة بحيث لا يبدو إنكليزيًّا ولا تشيكوسو»، قال الرئيس. فتح الكتاب، ثم مجدّدًا انتصب الرئيس، غازي البشر، المنتصر في المعارك الدبلوماسيّة والقانونيّة والعسكريّة، وتفرّس في الوجوه القاتمة الثابتة المصمّمة المنتظرة؛ حين تكلّم كان صوته هو صوت الرجل الذي جعل الرجال قبل ذلك يصمتون ويطيعون: «فرانسيس ويديل، زعيم شعب التشيكوسو، وأنت، يا ابن أخت فرانسيس ويديل والذي سيصبح ذات يوم زعيمًا، اسمعا كلماتي». ثم بدأ يقرأ. جاء صوته

---

(١) تشارلز كورنواليس Charles Cornwallis (١٧٣٨- ١٨٠٥): حاكم عسكري كولونيالي إبّان الاحتلال البريطاني لأميركا وكان من القادة العسكريين الأساسيين خلال «الثورة الأميركيّة» (١٧٧٥ - ١٧٨٣). هُزم من قبل قوّات أميركيّة فرنسيّة مشتركة عام ١٧٨١ في ما يعرف باسم «حصار يوركتاون» التي اعتبرت نهاية لتلك الحرب.

(٢) فرانسيس بترارك Francis Petrarch (١٣٠٤ - ١٣٧٤): شاعر إيطالي.

عاليًا، قويًّا، فوق الوجوه القاتمة، يتردّد صداه في مقاطع صوتيّة عميقة وجادّة. قرأ عشر سونيتات. ثم أنهى كلامه رافعًا يده، وتبدّد صوته ثم أنزل ذراعه. بعد برهة، من خارج المبنى، جاء صوت المدفعيّات. وللمرّة الأولى تحرّكت الكتلة البشريّة، مدمدمة بنوع من الذهول الراضي. تكلّم الرئيس ثانية: «يا ابن أخت فرانسيس ويديل، أنت حرّ، عد إلى ديارك».

ثم تكلّم الخال، هازًّا سبابته خارج القماش المخرّم الذي يحيط بيده. «أيّها الفتى العنيد، فكّر في المتاعب التي تسبّبت بها لهؤلاء الرجال المشغولين». واستدار نحو الوزير في اللّحظة نفسها تقريبًا «والآن بخصوص مسألة المعبر النهري الملعون...».

سقطت شمس الخريف دافئة على كتفيه، وقال الرئيس بهدوء، «هذا كلّ شيء»، ثم استدار إلى مكتبه بينما غادر الوزير. وحين رفع الرسالة وفتحها سقطت الشمس على يديه وعلى الصفحة، مؤشّرة إلى النهاية الرائعة للشتاء، ولاقتراب موسم الحصاد وارتفاع أعمدة الدخان فوق المداخن المسالمة.

فجأة أجفل الرئيس. فتح الرسالة بين يديه، محملقًا بها، مصدومًا ومركّزًا انتباهه بينما الكلمات تتدافع أمام ناظريه وعقله كالرصاص.

سيّدي وصديقي العزيز:

هذا مضحك حقًّا. لقد تسبّب مجدّدًا ابن أختي العنيد هذا الذي ورث شخصيّته من قوم أبيه، ما دامت لا تشبهني بشيء – بالمتاعب لي ولك. إنّه ذلك المعبر اللّعين مجدّدًا. لقد جاء إلى منطقتنا رجل أبيض آخر لكي يصطاد بسلام كما ظنّنا، وبما أنّ غابة الربّ والغزلان التي يضعها فيها هي ملك الجميع. لكنّه هو أيضًا بات مهووسًا بفكرة امتلاك المعبر بعد أن سمع بابن جنسه الذي، على غرار التقليد الفضولي والمستمرّ للبيض، وجد جانبًا واحدًا من النهر متفوّقًا كفاية على الجوانب الأخرى بحيث يقوم الناس بدفع المال له لكي يمرّوا. فتمّت المسألة مثلما يشتهي هذا الرجل الأبيض. ربّما كنت مخطئًا، ستقول. لكن هل أحتاج إلى أن أقول لك؟ أنا رجل بسيط، وقريبًا سأصبح عجوزًا بكلّ تأكيد، والتدخّل المستمرّ لأولئك الرجال البيض الذين يرغبون في العبور وجمع النقود والاهتمام بها هو مجرّد إزعاج. إذ ما الذي يمكن أن يمثّله المال لي، وأنا قدري أن أنفق سنواتي الآفلة تحت الأشجار القديمة التي قام صديقي وزعيمي الأبيض العظيم بإزالة وجه كلّ عدوّ من أفيائها، خلا وجه الموت؟ هذه كانت فكرتي، لكن حين تقرأ أكثر سترى ماذا حدث.

مرّة أخرى هو هذا الفتى المتهوّر والعنيد. يبدو أنّه تحدّى الرجل الأبيض الجديد هذا (أو الرجل الأبيض تحدّاه: سأترك الحقيقة لحكمتك النافذة لكي تحلّها) لمباراة سباحة في النهر، والرهان هو المعبر الملعون إيّاه مقابل بضعة أميال من الأرض التي (هذا سيضحكك) لا يملكها ابن أختي الجامح هذا. تمّ السباق، لكن لسوء الحظّ فشل رجلنا الأبيض في الخروج من النهر إلاّ ميتًا. والآن وصل مفوّضك، ويبدو أنّه يشعر بأنّ هذا السباق لم تكن إليه حاجةٌ ربّما، وما كان يجب أن يجري من الأساس. والآن ليس أمامي ما أفعله سوى أن أحرّك عظامي القديمة وأحضر هذا الفتى المتهوّر إليك لكي تقوم بتأديبه. سوف نصل في غضون...

مدّ الرئيس ذراعه إلى الجرس وسحبه بعنف. حين وصل مساعده أمسكه من كتفيه وقاده إلى الباب ثانية. «أحضر لي وزير الدفاع، وخرائط كل المناطق من هنا حتى نيو أورلينز»، صرخ، «بسرعة».

وهكذا رأيناه ثانية؛ اختفى الرئيس وحلّ محلّه القائد العسكري الذي وقف بجانب وزير الحرب خلف طاولة الخرائط، مقابلهم وقف قائد سلاح الفرسان. على الطاولة انهمك الوزير في الكتابة بينما الرئيس ينظر إلى الخلف. «اكتب بخطّ كبير»، قال، «بحيث يكون الكلام واضحًا حتى للهنود. فليكن معلومًا للجميع، أنّ فرانسيس

ويديل، وورثته، والمتحدّرين منه من الآن فصاعدًا وإلى الأبد... لا يحقّ لهم... هل كتبت لا يحقّ لهم؟ حسنًا، لا يحقّ لهم عبور الجانب الشرقي من النهر المشار إليه أعلاه... والآن اكتب لمفوّض الحكومة اللّعين»، قال، «ينبغي أن تكون الإشارة مضاعفة، على جانبي المعبر: الولايات المتّحدة الأميركيّة لا تتحمّل مسؤوليّة أيّ رجل أو امرأة أو طفل، أسود كان أم أبيض أم أصفر أم أحمر، يعبر هذا المعبر، ولا يحقّ لأيّ رجل أبيض شراء أو استئجار أو قبول هديّة تحت طائلة العقوبة القصوى. هل يمكنني فعل ذلك؟».

قال الوزير: «أخشى أن لا، يا صاحب الفخامة».

قال الرئيس بسرعة «اللّعنة... احذف هذا الجزء الأخير إذن». ففعل الوزير. طوى الرئيس الورقتين وسلّمهما إلى قائد سلاح الفرسان وقال له: «اذهب، أوامرك هي أن توقفهم».

قال الكولونيل: «افترض أنّهم امتنعوا عن التوقّف، هل أطلق الرصاص عليهم؟».

قال الرئيس: «أجل، أطلق الرصاص على كلّ حصان، وبغل وثور. أعرف أنّهم لن يأتوا سيرًا على الأقدام. فلتنطلق الآن». خرج الكولونيل. استدار الرئيس نحو الخرائط ـ وهو ما يزال متّخذًا وضعيّة الجندي: متحمّس، سعيد، كأنّما يقود الفرقة بنفسه، أو كأنّه قام روحيًا بنشر الجنود بمكر وفطنة في المكان الذي لا يكون

في صالح العدوّ، ووصل قبله، «سيكون هناك»، قال، ووضع إصبعه على الخريطة، «حضّر الحصان أيّها الجنرال، حيث أستطيع أن أواجهه عند هذه النقطة وأردّه على أعقابه».

أجاب الوزير: «أمرك أيّها الجنرال».

الأرض الخراب

نحو النجوم[١] Ad Astra

لا أعرف ماذا كنّا. باستثناء كومين[٢] بدأنا كأميركيّين. لكن بعد ثلاث سنوات، بالبزّات البريطانيّة، والأجنحة البريطانيّة، والأوشحة العسكريّة هنا وهناك، لا أحسب أنّنا تجشّمنا عناء أن نسأل أنفسنا حتى من نحن، أو أن نفكّر في الأمر، أو أن نتذكّره.

وفي ذلك اليوم[٣]، في تلك العشيّة، صرنا أقلّ من ذلك حتى، أو أكثر: فإمّا أنّه كان تحت إدراكنا أو فوقه أنّنا لم نتساءل خلال ثلاث سنوات. قال الصبهدار[٤] ـ الذي التحق بنا بعد فترة معتمرًا طربانه، وشارات الرائد تزيّن كتفيه ـ إنّنا أشبه بأشخاص

---

(١) نحو النجوم: أوّل قصّة يكتبها فوكنر عن الحرب العالميّة الأولى وما بعدها، قصص «الجيل الضائع»، أو «الأرض الخراب» وهو العنوان الذي يقتبسه فوكنر دون تغيير عن قصيدة إليوت الشهيرة. كتبها نهاية العام ١٩٢٧، لكنّها نُشرت في «أميركان كارافان» عام ١٩٣١.

(٢) كومين Comyn : طيّار أيرلندي.

(٣) أي يوم الحادي عشر من نوفمبر ١٩١٨، اليوم الذي يعرف بـ «يوم وقف إطلاق النار» Armistice Day، نهاية الحرب العالميّة الأولى، وهو اليوم الذي تجري فيه أحداث هذه القصّة.

(٤) الصبهدار Subadar: حاكم إقليم في الهند. أو الضابط الهندي المسؤول عن فرق الهنود في الجيش البريطاني في الهند. هذه الفرق شاركت في الحرب العالميّة الأولى.

يخوضون في الماء، «لكن عمّا قريب سينجلي عفن الكراهية والكلمات. نحن أشبه برجال يسعون في الماء، حابسين أنفاسنا، يرى واحدنا أطراف الآخر الكاملة بالغة الصغر، في جمود تامّ دونما لمس، دونما اتّصال، دونما شيء، سوى العجز والحاجة».

كنّا في السيّارة آنذاك، متّجهين إلى آميان[١]. سارتوريس[٢] يقود السيّارة وبجانبه كومين، رأسه يعلو أكثر منه بقليل، ويترجرج كدمية تحرّكها الخيوط، بينما الصبهدار وبلاند وأنا في المقعد الخلفي، كلّ واحد منّا يحمل في جيوبه قنّينة شراب أو اثنتين، ما عدا الصبهدار. كان رجلاً مربوعًا قصيرًا وممتلئًا، لكنّه يتمتّع برجاحة عقل هائلة. في تلك الدوّامة العنيفة من الكحول التي لذنا بها هربًا من ذواتنا المحتومة، كان أشبه بصخرة، يتكلّم برويّة وبنبرة جدّيّة تزن أربعة أضعاف حجمه. قال: «في بلدي كنت أميرًا. لكنّ كلّ البشر إخوة».

لكن بعد اثني عشر عامًا أحسب أنّنا أشبه ببقّ يطفو على سطح الماء، معزول، لا هدف له، ولا يعرف الكلل. ليس على سطح

---

(١) آميان Amiens مدينة تقع في شمال فرنسا على نهر «سوم» Somme.

(٢) ضمن سلالة سارتوريس التي تتمحور حولها ثلاثيّة «سارتوريس» وبعض القصص القصيرة هو بايارد سارتوريس الثالث شقيق جون سارتوريس الثالث. يظهر في جزأين من الثلاثيّة وفي القصّة القصيرة «كان هناك ملكة».

الماء؛ بل في صفحة الماء، في ذلك الخطّ الفاصل الذي ليس هواء ولا ماء، أحيانًا نغوص تحت الماء وأحيانًا نرتفع فوقه. لقد رأيت موجة عملاقة في جون، حيث تكون المياه ضحلة، والجون ساكن، ومشؤوم بعض الشيء متخم بالألفة، بينما وراء خطّ الأفق الآخذ في العتمة تثور مجدّدًا العاصفة المحتضرة. تلك كانت المياه ونحن الحطام العائم. حتى بعد اثني عشر عامًا ليس الأمر بأوضح من ذلك. ليس من نهاية له ولا بداية. من العدم أفقنا، مغفلين العاصفة التي فررنا منها، وجنوح السفينة المحتوم؛ ففي الفترة الزمنيّة الفاصلة بين موجتين غامرتين متنا، وكنّا أصغر سنًّا من أن نكون قد عشنا.

مررنا بحانة في منتصف الطريق لكي نشرب ثانية. كانت الأرض مظلمة وخالية وهادئة: ذاك ما لاحظته، وما أدركته. سمعت الأرض تتنفّس، كأنّها تخرج من الأثير، كأنّما لا تعرف بعد، ولا تصدّق، أنّها مستيقظة.

قال الصبهدار: «الآن حلّ السلام، كلّ البشر إخوة».

وقال بلاند: «لقد خطبتَ أمام الاتّحاد مرّة»[1]. كان بلاند هذا أشقر طويل القامة. حين يعبر غرفة فيها نساء يترك وراءه تنهيدة مثل قارب يدخل في مزلق السفينة. وكان جنوبيًّا على غرار

---

(١) اتّحاد أوكسفورد: رابطة نخبويّة تأسّست عام ١٨٢٣ بهدف النقاش والتعبير الحرّ عن الأفكار.

سارتوريس، لكن على عكسه خلال الأشهر الخمسة التي قام فيها بطلعاته الجوِّيَّة لم تُصَبْ طائرته بأيّ رصاصة. لكنّه نقل من كتيبة أوكسفورد[١] ــ حيث درس بمنحة رود[٢] ــ مع نظّارات ووسام الشجاعة. حين يستبدّ به السُّكْر يبدأ بالتكلّم عن زوجته مع أنّنا جميعًا نعلم أنّه ليس متزوّجًا.

أخذ القنّينة من سارتوريس وعبّ منها. وقال: «لديّ أحلى زوجة في العالم دعوني أخبركم عنها».

قال سارتوريس: «لا تخبرنا، أعطها لكومين، فهو يريد فتاة».

قال بلاند: «حسنًا، يمكنك الحصول عليها يا كومين».

سأله كومين: «أهي شقراء؟».

قال بلاند: «لا أعرف». والتفت صوب الصبهدار، وقال: «لقد تكلّمتَ مرّة أمام الاتّحاد، أذكرك».

قال الصبهدار: «آه، أوكسفورد. أجل».

---

(١) كتيبة تشكّلت من طلاّب جامعة أوكسفورد خلال الحرب العالميّة الأولى.

(٢) منحة رود Rhodes: منحة تتيح للطلاّب المتفوّقين أن يدرسوا مجّانًا لمدّة سنتين في جامعة أوكسفورد. أطلقت عام ١٩٠٢ عملاً بوصيّة سيسيل رود، وسُمّيت على اسمه.

قال بلاند: «يستطيع الانتساب إلى مدارس الأثرياء، أولئك أصحاب الجلود البيضاء، لكنّه لا يستطيع قيادتهم، لأنّ الطبقيّة تتعلّق باللون لا بالنسب أو السلوك».

قال الصبهدار: «القتال أهمّ من الحقيقة، فيجدر بنا أن نحصر هيبته وامتيازاته بالقلّة بحيث لا يفقد شعبيّته بوجود هذا العدد الكبير من المضطرّين إلى أن يموتوا».

سألته: «لماذا هو أكثر أهمِّيَّة؟ حسبت أنّنا نخوض هذه الحرب لكي ننهي الحروب إلى الأبد».

بدرت عن الصبهدار إيماءة صغيرة، مبهمة، اعتراضيّة، رقيقة، وقال: «كنت رجلاً أبيض أيضًا في تلك اللحظة. القتال أكثر أهمِّيَّة بالنسبة إلى الأبيض لأنّه ليس إلاّ ما يسعه فعله؛ إنّه مجموعه».

«إذن أنت ترى أبعد ممّا نرى؟».

«حين يكون المرء في العتمة وينظر إلى الضوء يرى أكثر ممّا يرى وهو في الضوء وينظر إلى العتمة. هذا هو مبدأ منظار التجسّس. هدف العدسة أن تستفزّه فحسب، بما لا يمكن للإحساس بالعذاب والرغبة أن يؤكّده».

سأله بلاند: «ما الذي تراه إذن؟».

قال كومين: أرى فتيات، أرى فدادين وفدادين من شعورهنّ الصفراء كالسنابل، وأنا بين السنابل. هل رأيتم كلبًا يجسّ متشمّمًا بين السنابل؟».

قال بلاند: «ليس يبحث عن الإناث».

التفت كومين إلى الخلف، متينًا وضخمًا. كان ضخمًا كجميع الريفيين. كانت مشاهدة عاملي صيانة يحشرانه داخل حجيرة طائرة «دولفين» يشبه مشاهدة خدّامتين تحشران وسادة في غطاء ضيّق جدًّا عليها. قال: «سأبرّحك ضربًا لقاء شلن».

قلت: «إذن أنت تؤمن بعدل الإنسان؟».

قال كومين: «سأبرّحكم جميعًا ضربًا لقاء شلن».

قال الصبهدار: «أنا أؤمن بالحالة، ببؤس الإنسان. هذا تعبير أفضل».

قال كومين: «سأعطيكم شلنًا إذن».

وقال سارتوريس: «حسنًا، هل جرّب أحدكم بعض الويسكي في الهواء الليلي؟».

أخذ سارتوريس القنّينة وعبّ منها، ثم قال: «فدادين لا تنتهي منهنّ، وأثداؤهنّ الصغيرة المدوّرة تتلألأ بين السنابل».

شربنا ثانية إذن، على الطريق الموحشة بين حقلي شمندر، في الظلمة الموحشة، وبدأ السّكر يعود إلى رؤوسنا من المكان الذي ذهب إليه، ملتفًّا حولنا وحول صخرة الصبهدار الرصينة الصاحية، حتى بدأ صوته يبدو بعيدًا ورقيقًا وحالمًا، وهو يقول إنّنا إخوة. كان موناهان قد جاء عندئذ، ووقف قرب سيّارتنا تحت شعاع مصابيح سيّارته الأماميّة، معتمرًا قبّعة (س. ط. م)[١] وسترة عسكريّة أميركيّة، وشريطا كتفيه مفكوكان، وأخذ يشرب من قنّينة كومين. وبجانبه وقف رجل ثان، كذلك يلبس سترة أقصر وأضيق من ستراتنا، وكان ثمّة ضمادة حول رأسه.

قال كومين مخاطبًا موناهان: «سأقاتلك، سأعطيك الشلن».

وقال موناهان: «حسنًا». وأخذ جرعة أخرى.

قال الصبهدار: «نحن جميعًا إخوة. أحيانًا نقف عند النزل الخطأ. نحسبه ليلاً ونقف، وهو ليس ليلاً. هذا كلّ ما في الأمر».

قال كومين مخاطبًا موناهان: «سأعطيك باوندًا إسترلينيًّا».

قال موناهان: «حسنًا». وناول القنّينة للرجل الواقف بجانبه.

فقال الرجل: «شكرًا لك، لديّ الكثير بعد».

---

(١) س. ط. م R.F.C: اختصار لـــ «فيلق الطيران الملكي» أو سلاح الطيران الملكي: Royal Flying Corps.

قال كومين: «سأقاتله».

وقال الصبهدار: «كيف لا يسعنا العيش إلاّ في حدود القلب، بينما نرى أبعد منه».

وقال موناهان رادًّا على كومين: «أكون ملعونًا لو سمحت لك، إنّه ملكي». والتفت إلى الرجل المضمّد: «ألست ملكي؟ خذ اشرب».

قال الرجل: «شربت الكثير، أشكركم أيّها السادة». لكنّني لا أحسب أنّ أيًّا منّا انتبه لأمره حتى صرنا داخل حانة «كلوش كلو»[1]. كان المكان مكتظًّا، مليئًا بالجلبة والدخان. لكن ما إن دخلنا حتى اختفى الصوت في لحظة واحدة، مثل خيط يُقصّ إلى نصفين، وراحت وجوه الحاضرين تتلفّت بنوع من الرعب الذاهل، واندفع النادل العجوز بمريلته القذرة نحونا، فاغرًا فاه، وقد علا وجهه تعبير عن عدم التصديق والذهول بسبب ما يراه، وكأنّه ملحد التقى المسيح أو الشيطان. مضينا قُدُمًا إلى الداخل، والنادل يتراجع أمامنا، تتبعه الوجوه المتلفتة الحانقة، واتّخذنا طاولة بجوار طاولة أخرى يجلس إليها ثلاثة ضبّاط فرنسيّين، راحوا يتفرّسون بنا وقد علا وجوههم التعبير نفسه الذي تدرّج من الذهول فالاستياء

---

(١) كلوش كلو، بالفرنسيّة Cloche-clos.

فالغضب. وقفوا كشخص واحد؛ الغرفة كلّها، وتحوّل الصمت إلى خليط من الأصوات يشبه المدافع الرشّاشة. وعندها التفتّ ورأيت رفيق موناهان للمرّة الأولى، بسترته العسكريّة الخضراء وسرواله الأسود الضيّق وجزمته السوداء والضمّادة حول رأسه. كان هناك جرح تركته الحلاقة على ذقنه، وبرأسه المضمّد ووجهه الناعم والمذهول والشاحب والمريض، بدا أنّ موناهان أنهكه بالشراب. كان شابًّا يافعًا مدوّر الوجه، وقد التفّت الضمّادة النظيفة على رأسه مرّة واحدة كأنّها مجرّد تأكيد على فارق العمر بينه وبين الصبهدار الذي يستقرّ الطربان على رأسه. إلى جانبه وقف موناهان بوجهه المسعور وسترته المتوحّشة، محاطًا بالفرنسيّين المصدومين الثائرين، مستغرقًا بنوع من القلق والتهذيب في مكابدته الخاصّة مع الثمالة التي فرضها عليه موناهان. كان ثمّة شيء أرستقراطي في ملامحه: صلب، مفعم بالروح العسكريّة، جميع أزراره مبكّلة، وبدا بضمّادته البيضاء والجروح الحديثة في ذقنه، غارقًا في تأمّل شعلة واضحة من الإيمان الراسخ بالسلوك الفردي أمام فوضى عنيفة لا مفرّ منها. ثم لاحظت رفيق موناهان الثاني، وهو شرطي عسكري أميركي. لم يكن يحتسي الشراب. بل اكتفى بالجلوس بجوار الألماني لافًّا السجائر من كيس قماشي صغير.

وعلى الجانب الآخر من الألماني أخذ موناهان يملأ كأسه، قائلاً: «لقد جئت به هذا الصباح، سآخذه معي إلى الديار».

قال بلاند: «لماذا؟ ما الذي تريده منه؟».

قال موناهان: «لأنّه ملكي». وضع الكأس الممتلئة أمام الألماني، «خذ، اشرب».

قال بلاند: «فكّرت مرّة في أن آخذ معي واحدًا لزوجتي، فقط لكي أثبت لها أنّني شاركت في الحرب. لكنّني لم أعثر البتّة على واحد مناسب، أعني واحدًا كاملاً».

قال موناهان: «هيّا، اشرب».

قال الألماني: «لقد شربت الكثير، إنّني أشرب منذ الصباح».

سأله بلاند: «أترغب في مرافقته إلى أميركا؟».

«أجل، أودّ ذلك. شكرًا».

فقال موناهان: «بكلّ تأكيد ستحبّ أميركا، سأصنع منك رجلاً. اشرب».

رفع الألماني كأسه. لكنّه بدا بالكاد قادرًا على حمله. كان الإجهاد والاستنكار باديين على وجهه، لكن بنوع من الصفاء، كوجه رجل قد تغلّب على نفسه. أتخيّل أنّ شهداء المسيحيّة القُدامى نظروا إلى الأسود بمثل هذه التعابير على وجوههم. كان مريضًا

أيضًا. ليس من الشراب، بل من الإصابة في رأسه. قال: «لديّ في بايروث(١) زوجة وطفل صغير، صبيٌّ لم أره بعد».

فقال الصبهدار: «آه، بايروث، لقد زرتها ذات مرّة».

قال الألماني ملتفتًا بسرعة إلى الصبهدار: «آه، لسماع الموسيقى إذن؟».

قال الصبهدار: «أجل، قلّة منكم استشعرت أو تذوّقت أو عاشت الأخوّة الحقيقيّة. أمّا بقيّتنا فيسعهم النظر إلى ما وراء حدود القلب فحسب. لكن يمكننا اتّباعهم لبعض الوقت في الموسيقى».

قال الألماني: «ثم نضطرّ إلى العودة، هذا ليس حسنًا. لماذا نضطرّ دائمًا إلى العودة؟».

قال الصبهدار: «لم يحن أوان ذلك بعد، لكن عمّا قريب... لم يعد بعيدًا مثلما كان في السابق. لكن ليس الآن».

قال الألماني: «أجل، ستكون الهزيمة مفيدة لنا، لكن ليس الانتصار».

---

(١) بايروث: بحسب لفظ الجندي الألماني في القصّة هي Beyreuth لكنّه يقصد Bayreuth مدينة ألمانيّة تقع شرق وسط ألمانيا، تشتهر بأنّها موطن «مهرجان بايروث الموسيقي» الذي أسّسه عام ١٨٧٦وأشرف على إنشاء قاعته الموسيقيّة المؤلّف الموسيقي ريتشارد فاغنر، حيث تُعزف أعماله.

قال كومين: «تعترف إذن أنّكم قد هُزمتم». أخذ يتصبّب عرقًا مجدّدًا. وكان منخرا سارتوريس أبيضين تمامًا. تذكّرت كلام سارتوريس عن أنّنا نسير في المياه. بيد أنّ مياهنا هي الثمالة: عزلة الكحول تلك التي تجعل الرجال يصرخون ويضحكون ويتعاركون، ليس مع بعضهم بعضًا، لكن مع ذواتهم التي لا تحتمل، لأنّهم حين يثملون يصبحون أكثر رضى بها، وأقلّ رغبة في الفرار منها. شيئًا فشيئًا راح صراخنا يتعالى، ونحن في غفلة عن العاصفة الفرنسيّة الثائرة حولنا (كانت الطاولات بدأت تفرغ من شاغليها، وتحلّق من تبقّى من الزبائن حول نضد صاحبة المكان، وهي امرأة عجوز تضع نظّارات معدنيّة، وتتكوّم أمامها لفّة من الخيطان) نتبادل الصراخ بألسن أجنبيّة انطلاقًا من عزلاتنا التي لا مفرّ منها، هاذرين، من دون أن يسمع واحدنا الآخر؛ بينما انغمس الصبهدار والألماني بأصوات خفيضة وأكثر أجنبيّة من أصواتنا، في نقاش حول الموسيقى والفنّ والانتصار الذي يولد من الهزيمة. وفي الخارج، في عتمة نوفمبر الباردة، كان وقف إطلاق النار، ذلك الكابوس الذي لا يصدّق، الفتنة الحيّة للشهوات الفائضة، والجشع المكفّن بالرايات والبزّات العسكريّة.

قال موناهان: «بحقّ الربّ، أنا كادح أيرلندي، هذه حقيقتي»[١].

قال سارتوريس: «وما المشكلة في ذلك؟». وقد ابيضّ منخراه كالطبشور على وجهه الداكن. كان أخوه التوأم قد قُتل في يوليو.

كان يحلّق مع «سريّة كامل»[٢] تحت مستوى طائراتنا، وشهد سارتوريس إسقاط طائرته. طوال أسبوع بعد ذلك، صار سارتوريس يعود من الدورية ويملأ خزانات طائرته بالوقود ويعاود التحليق، وحيدًا. ذات يوم رآه أحدهم، جاثمًا على علوّ نحو خمسة آلاف قدم فوق طائرة «آ كاي دبليو» قديمة. أحسب أنّ الطيّار الذي كان برفقة أخيه ذلك الصباح رأى رموز طائرة قائد سرب الاستطلاع الألماني؛ على أيّ حال هذا ما كان سارتوريس يفعله،

---

(١) كادح أيرلندي Shanty Irish : أو مسكين أيرلندي: تعبير مثله مثل تعبير «الأيرلندي الأسود» Black Irish غير شائع في أيرلندا نفسها، لكنّه شائع في أميركا، للدلالة على المهاجرين الأيرلنديين الذين كانوا يعيشون في أكواخ الصفيح في أحزمة البؤس، والأرجح أنّ كلمة Shanty منحولة من تعبير «sean tí» الأيرلندي الذي يعني «البيت القديم». واليوم يعدّ هذا التعبير تحقيريًّا للدلالة على الفقراء المعدمين، بصرف النظر عن جنسيّتهم.

(٢) Camel Squadron: سريّة طائرات «كامل» كانت تعمل تحت قيادة قوّات الجوّ الملكيّة (البريطانيّة) خلال الحرب العالميّة الأولى. طائرة «كامل» أو «سوبويث كامل» Sopwith Camel من الطائرات الحربيّة الصغيرة التي تتّسع لطيّار واحد، وقد وضعت في الخدمة عام ١٩١٧ولم تكن من الطائرات المفضّلة لدى الطيّارين خلال الحرب العالميّة الأولى، وإن كانت تعدّ جيّدة في عمليّات المناورة بسبب صغر حجمها.

مستعملاً طائرة الـــ «آ كاي دبليو» كطعم، ومحلّقًا فوقها بطائرته. ولا أحد يعرف من أين حصل على تلك الطائرة ومن أقنعه بالتحليق بها، لكنّه تمكّن من قتل ثلاثة من «الهان»[١] ذلك الأسبوع حين انقضّوا على طائرة الـــ «آ كاي»، وفي اليوم الثامن توقّف عن التحليق، فقال هيوم: «لا بدّ من أنّه قتله». لكنّنا لم نعرف. لم يخبرنا البتّة. لكن بعد ذلك، عاد إلى طبيعته مجدّدًا. لم يعد يتكلّم كثيرًا؛ فقط يقوم بطلعاته الجوّيّة وربّما مرّة في الأسبوع يجلس ويشرب بهدوء حتى يبيضّ منخراه.

راح بلاند يملأ كأسه ببطء شديد، قطرة قطرة تقريبًا، بكسل هرٍّ تقريبًا. ففهمت عندها لماذا يكرهه الرجال وتحبّه النساء. وأخذ كومين، شابكًا يديه على الطاولة، وطرفا كمّيه غارقان في بركة من الشراب المراق، يحملق بالألماني بعينين محمرّتين جاحظتين بعض الشيء. تحت قبّعته السخيفة راح الجندي العسكري يدخّن سجائره القليلة، شاحب الوجه تمامًا، تتدلّى من جيب صدرته سلسلة صفّارته، وقد برز مسدّسه عند وركه. وراءهم احتشد الفرنسيّون من جنود ونُدُل وزبائن حول نضد صاحبة الحانة، وسمعتهم

---

(١) هان أو Hun: تعبير تحقيري راج خلال الحربين العالميّتين الأولى والثانية، ويقصد بها الشخص الألماني.

يتهامسون عن بعد، مثل الصرّار في عشب سبتمبر، بينما ظلال أيديهم ترتفع على الجدار ثم تختفي.

قال موناهان: «لست جنديًّا، لست أرستقراطيًّا. لست شيئًا». أسفل كلّ شارة على كتفيه كان ثمّة مزق صغير، يوازيهما مزقان أكبر فوق جيب سترته الأيسر حيث شارة كتيبته. «لا أعرف ما أنا. إنّني في هذه الحرب اللّعينة منذ ثلاث سنوات وكلّ ما أعرفه أنّني لست ميتًا، و...».

سأله بلاند: «وكيف تعرف أنّك لست ميتًا؟».

نظر موناهان إلى بلاند، فاغرًا فمه.

قال كومين: «سأقتلك لقاء شلن. لا يعجبني وجهك اللّعين أيّها الملازم، أيّها الملازم اللّعين».

وقال موناهان: «أنا كادح أيرلندي، هذه حقيقتي. كان أبي كادحًا أيرلنديًّا. ولا أعرف ماذا كان جدّي. لا أعرف إذا كان لي جدّ. أبي لا يذكر أباه. على الأرجح نتج من مضاجعات جدّتي الكثيرة، لذا لم يضطرّ أبي إلى أن يكون نبيلاً. لم يكن عليه ذلك البتّة. لهذا استطاع أن يجني مليون دولار من حفر المجارير، بحيث يستطيع رفع رأسه إلى النوافذ الطويلة المتلألئة ويقول... لقد سمعته وكان يدخّن الغليون وكانت رائحته تكفي لكي تتقيّأوا أيّها الحقراء التافهون...».

قال بلاند: «أتتبجّح الآن بمال أبيك أم بمجاريره؟».

«... وينظر إليهم ويقول لي: حين تكون مع أصدقائك الراقين، الذين التقيت آباءهم وأمّهاتهم وأخواتهم في يال، ذكّرهم أنّ كلّ رجل هو عبد فضلاته، لذا فإنّ أباك الذي يرسلونه إلى مطابخهم الخلفيّة ليصلح مواسيرهم، هو ملكهم جميعًا... ماذا قلت؟»، قال وهو ينظر إلى بلاند.

قال الشرطي العسكري: «اسمع يا صاح، هذا كاف. عليّ أن أسلّم هذا السجين».

وقال موناهان من دون أن ينزع ناظريه عن بلاند: «ماذا قلت؟».

«سألتك إذا كنت تتبجّح بمال أبيك أم بمجاريره؟».

قال موناهان: «لا، لماذا أتبجّح بذلك، أكثر ممّا قد أفعل حول الثلاثة عشر ألمانيًّا الذين أرديتهم، أو حول الشارتين اللّتين تلقّيتهما من ملكه اللّعين». وأشار إلى كومين.

قال كومين: «لا تتاده هكذا» وابتلّ كُمّا سترته بالخمرة المراقة على الطاولة.

قال موناهان، واضعًا وضع يده على شريطي كتفيه المفكوكين، وعلى المزقَيْن أعلى جيب سترته: «اسمع، هذا رأيي في الأمر، في كلّ ما تتبجّح به حول المجد والنبلاء. لقد كنت شابًّا؛

وظننت أنّه يفترض أن أنخرط في الحرب. ثم انخرطت فيها، ولم يكن من وقت للتوقّف حتى حين اكتشفت أنّها غير مهمّة. لكنّها انتهت الآن. انتهت الآن. الآن أستطيع أن أكون من أريد، كادحًا أيرلنديًّا، ابن مهاجر لم يجد شيئًا سوى حفر المجارير حتى انقضى شبابه قبل أن يبدأ. لقد جاء من مستنقعات البراز، وابنه ذهب إلى مدارسهم الراقية وعاد ليتبجّح بذلك أمام كلّ الذين يمتلكون مستنقعات البراز، وقال الملك فيه كلامًا حسنًا».

قال كومين: «سأعطيك شلنًا وأبرّحك ضربًا».

قال بلاند: «لكن لماذا تريد أن تعيده معك؟»، واكتفى موناهان بالتحديق به بصمت. كان ثمّة في ملامحه ما يشبه شهداء المسيحيّة أيضًا: ثائر، عاجز عن التعبير ليس بفعل الذهول، بل عن الذهول، كأنّما، وأكثر من أيّ واحد آخر منّا، قد تكثّف في داخله قرع الطبول المعطّلة[1]، طبول الجشع والشهوة التي استيقظت مذعورة على عجزها ويأسها المتراكم. جلس بلاند مادًّا رجليه، واضعًا يديه في جيبي سرواله، وقد علا وجهه الوسيم صفاء لا يطاق. قال: «على أيّ آلة سيعزف في أميركا؟ ربّما على رفش وُضعت له أوتار صُنعت من أحشاء قطط الأزقّة؟ سيعزف ربّما موسيقى مياه مراحيض مانهاتن لأبيك بعد العشاء». اكتفى موناهان بالنظر إلى

(١) إشارة إلى وقف إطلاق النار، نهاية الحرب العالميّة الأولى.

بلاند من دون أن تفارق وجهه تلك الشراسة وذلك السهو. التفت بلاند بوجهه الكسول صوب الألماني.

قال الشرطي العسكري: «يا جماعة».

وقال بلاند: «أأنت متزوّج يا حضرة الملازم؟».

رفع الألماني رأسه. وجال بناظريه سريعًا على الوجوه، ثم قال: «أجل شكرًا على الاهتمام». كان يحمل الكأس دون أن يشرب منها. لكنّه لم يكن أكثر صحوًا من ذي قبل. أصبحت الخمرة جرح رأسه النابض بها. قال: «أسرتي متحدّرة من بارونات بروسيا الصغار. لديّ أربعة أشقّاء؛ الثاني في الجيش، الثالث لا يفعل شيئًا في برلين، الصغير طالب في الكلِّيَّة العسكريّة؛ وأنا، الأكبر، في الجامعة. هناك تعلّمت. كان ثمّة متّسع من الوقت وقتذاك. ربّما تمّ اختيارنا وجمعنا، نحن الشباب، من الأرض المنعزلة، لأنّنا نستحقّ أن نشهد الولادة السريعة لعصر جديد. كأنّما القمامة القديمة، قمامة الإنسان القديمة، ستُكنس لكي يولد عرق جديد يتمتّع بالبساطة البطوليّة التي عرفتها الأزمنة القديمة، ويسيّر الأرض الجديدة. تنكرون ذلك الزمن، أليس كذلك؟ حين التمعت العيون وفارت الدماء في الشرايين؟». راح يحملق بنا ثم قال: «لا، أظنّ أنّ الحال لم يكن كذلك في أميركا. أميركا جديدة، وقمامة المنزل الجديد لن تكون كثيرة كقمامة المنزل القديم». أطرق لبرهة ناظرًا إلى كأسه وقد طفح وجهه رقّة. ثم قال: «عدت إلى البيت وقلت لأبي لقد

تعلّمت في الجامعة أنّ هذا ليس بجيّد؛ لن أصبح بارونًا. فلم يصدّق ما يسمعه. وراح يحدّثني عن ألمانيا، أرض الأجداد؛ فقلت له لكنّها هناك؛ أنت تسمّيها أرض الأجداد، وأنا أسمّيها أرض الإخوة، ذلك أنّ كلمة أجداد هي تلك البربريّة التي ستُكنس أوّلاً، إنّها رمز تلك الهرميّة التي وصمت تاريخ الإنسان بالظلم والعسف، بدلاً من الأخلاق، بالقوّة بدلاً من الحبّ».

«استدعوا من برلين أخي الثاني؛ وعاد أخي الثالث من الجيش. ظللت أقول لن أصير بارونًا، لأنّ هذا غير جيّد. ووقفت مع أبي في القاعة الصغيرة حيث أسلافي معلّقون على الجدران؛ وقفت أمامهم كأنّهم أعضاء محكمة عسكريّة؛ وقلت إنّ فرانز يجب أن يكون بارونًا بدلاً منّي، لأنّني لا أستطيع كذلك. وقال أبي بلى تستطيع، وستصبح بارونًا من أجل ألمانيا. ثم قلت، إذن أينبغي أن تكون زوجتي بارونة كرمى لألمانيا؟ وكأنّني أمام محكمة عسكريّة، اعترفت لهم أنّني تزوّجت ابنة موسيقي، ابنة فلاّح».

«هذا ما يجب أن يحدث إذن. ذلك الذي ذهب إلى برلين سيصير بارونًا. هو وفرانز توأمان، لكن فرانز أصبح ضابطًا، والأكثر تواضعًا في جيشنا يستطيع تناول وجبة طعام مع قيصرنا؛ لا يحتاج إلى أن يكون بارونًا. أمّا أنا فعشت في بايروث مع زوجتي وموسيقاي. بالنسبة إليهم صرت أشبه الميت، فلم تصلني منهم أيّ رسالة سوى تلك التي أخبروني فيها بوفاة أبي، قائلين إنّني

قتلته، وإنّ أخي عاد من برلين ليصبح بارونًا. لكنّه لم يبق في البيت. في ١٩١٢ قرأت خبر مقتله في صحيفة في برلين، على يد زوج سيّدة ما، وهكذا صار فرانز البارون في نهاية المطاف».

«ثم اندلعت الحرب. لكنّني في بايروث مع زوجتي وموسيقاي، لأنّنا ظننّا أنّها لن تطول، بما أنّها لم تطل قبلاً. أرض الأجداد الفخورة بحاجة إلينا في المدارس، لكن حين تحتاج إلينا لا تعرف ذلك. وحين تدرك أنّها بحاجة إلينا يكون قد فات الأوان، وأيّ فلاّح قوي يجب أن ينخرط في الجيش. وهكذا...».

سأله بلاند: «لماذا شاركت في الحرب إذن؟ أأجبرتك امرأتك؟ أرشقتك بالبيض ربّما؟».

نظر الألماني إلى بلاند، وقال: «أنا ألماني؛ وهذا يتجاوز الأنا. لم أُخلق لأكون بارونًا ولا قيصرًا». ثم غامت عيناه، وقال: «كانت ألمانيا قبل البارونات»، قال، «وستبقى بعدهم».

«حتى بعد هذه الحرب؟».

«بل أكثر. في السابق كان هناك الكبرياء.. مجرّد كلمة في الفم. أمّا الآن، فماذا يمكن أن نسمّيه؟».

قال الصبهدار: «أمّة تنكّس راياتها، إنسان يهزم نفسه».

قال الألماني: «أو امرأة تحمل طفلاً».

قال الصبهدار: «من الشهوة يأتي المخاض، ومن المخاض يولد البرهان، الألوهيّة العظيمة؛ الحقّة».

أخذ الشرطي العسكري يلفّ سيجارة أخرى، شاخصًا نحو الصبهدار، وقد ارتسم على وجهه تعبير ثائر وحانق وفاتر في آن. لحس السيجارة ثم بادرني: «حين جئت إلى هذا البلد اللّعين كنت أحسب الزنوج زنوجًا. لكن فلأكن ملعونًا الآن لو كنت أعرف ما هم. ما هو؟ حاو؟».

قلت: «أجل، إنّه حاو».

«يُستحسن إذن أن يُخرج أفعاه ويذهب من هنا. عليّ أن أسلّم هذا السجين. أنظروا إلى أولئك الضفادع هناك»[١]. حين نظرت إلى الفرنسيّين الثلاثة كانوا يهمّون بالمغادرة، والإحساس بالإهانة والغضب يتفصّد من ظهورهم.

قال الألماني: «عرفت من الصحف أنّ فرانز أصبح عقيدًا ثم لواء، وأنّ الطالب في الكلِّيَّة الحربيّة، الذي كان دائمًا جزءًا من عصابة ما، أصبح طيّارًا حربيًّا ــ آيس[٢] ــ وحصل على ميداليّة «الصليب الحديدي» من القيصر شخصيًّا . ثم جاء العام ١٩١٦.

---

(١) الضفادع Frogs: تعبير تحقيري يُقصد به الشخص الفرنسي.

(٢) آيس Ace الطيّار الحربي الذي يسقط خمس طائرات للعدوّ على الأقلّ.

رأيت أنّ الطالب قُتل على يد طيّاركم بيشوب...»[1] ــ أحنى رأسه قليلاً لكومين ــ «ذلك الرجل البارع. فصرت طالبًا في الكلّيَّة الحربيّة. كأنّني كنت أعرف مآل الأمر. فصرت طيّارًا، رغم معرفتي بأنّ فرانز أصبح جنرالاً، ورغم أنّني كلّ ليلة أقول لنفسي: لقد عدت ثانية، أعرف أنّ هذا ليس بالجيّد».

«هذا إلى أن فرّ قيصرنا. ثم علمت أنّ فرانز بات في برلين. أعتقد أنّ هناك حقيقة لم نخسرها جميعًا في الكبرياء، لأنّنا نعرف أنّها لن تطول أكثر، وفرانز بأمان في برلين، بعيدًا عن القتال».

«ثم هذا الصباح وصلتني رسالة من أمّي التي لم أرها من سبع سنوات وتخاطبني فيها كبارون، وتخبرني أنّ فرانز أُردي بالرصاص وهو على صهوة جواده، على يد جندي ألماني في برلين. كأنّ كل شيء قد نُسي، لأنّ النساء سريعات النسيان، ما دام كلّ شيء بالنسبة إليهنّ غير حقيقي ــ الحقيقة، العدالة، كلّ شيء ــ كلّ ما لا يمكن حمله باليد ولا يموت. فأحرقت جميع أوراقي، وصورة زوجتي وابني الذي لم أره بعد، وبطاقة هويّتي، وأزلت كلّ الشارات عن سترتي...»، وأشار إلى ياقته.

---

(١) وليم بيشوب (١٨٩٤ - ١٩٥٦): أحد الطيّارين المعروفين ببطولاتهم خلال الحرب العالميّة الأولى.

قال بلاند: «أتعني أنّك لم تكن تنوي العودة؟ لماذا لم تطلق الرصاص على نفسك وتوفّر على حكومتك طائرة؟».

قال الألماني: «الانتحار يطاول الجسد فحسب، والجسد لا يحلّ شيئًا. ليس بالمهمّ. كلّ ما يمكن فعله به هو تنظيفه كلّما أمكن ذلك».

قال الصبهدار: «إنّه مجرّد غرفة في النزل، إنّه المكان الذي نختبئ فيه لفترة وجيزة».

وقال بلاند: «إنّه المرحاض، التواليت».

وقف الشرطي العسكري. ولكز الألماني على كتفه. راح كومين يحدّق بالألماني. وقال: «إذن تعترف أنّكم هُزمتم».

«أجل، كان دورنا أوّلاً لأنّنا كنّا الأشدّ مرضًا. وسيأتي دور بلدكم إنجلترا ثانيًا. ثم سيتعافى هو الآخر».

فقال كومين: «لا تقل بلدكم، أنا من الأمّة الأيرلنديّة». التفت إلى موناهان، «قلتَ ملكي اللّعين. لا تقل ملكي اللّعين. لم يكن لأيرلندا ملك منذ سلالة الإر نيل[1]، ليبارك الربّ ذيل جواده الأحمر».

(١) في لفظ كومين Ur Neill: سلالة Uí Néill: أي أبناء نيال نويغيلاتش، أحد ملوك أيرلندا الأسطوريّين، توفي عام ٤٠٥ للميلاد.

أومأ الألماني إيماءة باهتة. وقال «أترى؟»، من دون أن يوجّه كلامه لشخص محدّد.

قال الصبهدار: «المنتصر يخسر ما يربحه المهزوم».

وقال بلاند: «وماذا ستفعل الآن؟».

لم يجب الألماني. جلس منتصبًا بوجهه العليل وضمّادة رأسه النظيفة.

وجّه الصبهدار كلامه إلى بلاند: «ما الذي ستفعله أنت؟ ما الذي سنفعله جميعًا؟ جميع أبناء هذا الجيل الذين خاضوا هذه الحرب ماتوا الليلة. لكنّنا لا نعرف ذلك بعد».

نظرنا إلى الصبهدار: كومين بعينيه الحمراوين الشبيهتين بعيني خنزير. سارتوريس بمنخريه الأبيضين. بلاند المتكاسل على كرسيه، بشعره الشبيه بشعر النساء المدلّلات، وبسامته التي لا تطاق. وقف الشرطي العسكري فوق رأس الألماني.

قال بلاند: «يبدو أنّ الأمر يقلقك كثيرًا».

قال الصبهدار: «ألا تصدّق؟ انتظر وسترى».

قال بلاند: «أنتظر؟ لا أعتقد أنّني فعلت شيئًا خلال السنوات الثلاث الفائتة لكي أكتسب عادة الانتظار. ولا خلال الستّة

والعشرين عامًا الماضية. قبل ذلك لا أذكر. ربّما أكون فعلت شيئًا».

قال الصبهدار: «سترى إذن دونما حاجة إلى الانتظار». نظر إلينا، بهدوء تامّ، «أولئك الذين يتعفّنون في الخارج هناك...»، وأشار بيده الغليظة القصيرة، «ليسوا أكثر موتًا منّا».

مجدّدًا لمس الشرطي العسكري كتف الألماني، «اللّعنة»، قال، «هيّا بنا يا صاح». ثم أدار رأسه ونظرنا جميعًا إلى الجنديّين الفرنسيّين، الضابط والرقيب، الواقفين عند طاولتنا. ظللنا صامتين لبرهة. كان الأمر كأنّ البقّ الصغيرة اكتشفت فجأة أنّ مداراتها متواجدة جنبًا إلى جنب، وأنّها غير مضطرّة إلى أن تكون بلا هدف أو أن تستمرّ في الحركة. بتأثير الكحول بدأت أحسّ بتلك الكرة الصلبة الحارّة في معدتي، كما في المعركة، كما حين تعرف أنّ شيئًا ما سيحدث؛ تلك اللّحظة التي تفكّر فيها أنّ الأمر سيحدث الآن. الآن يمكنني أن أرمي كل شيء وأكون نفسي. الآن. الآن، يا للشعور الرائع.

قال الضابط الفرنسي: «لماذا هذا الشخص هنا يا مسيو؟». نظر موناهان إليه، ثم تراجع بكرسيّه إلى الخلف ومال جانبيًّا، موازنًا نفسه على إربتي فخذيه، طارحًا ذراعه على الطاولة، «لماذا تفعل ما يهين فرنسا يا مسيو؟»، قال الضابط.

أمسك الشرطي العسكري بموناهان بينما هو يهمّ بالوقوف. وقال: «انتظر لحظة، على رسلك». وراحت السيجارة تترجرج على شفتيه بينما يتكلّم، ويداه على كتفي موناهان، وقد ارتفع عضاد ذراعه إلى أعلى زنده قليلاً، ثم قال: «وما شأنك أنت أيّها الضفدع؟». وراء الضابط وقف الفرنسيّون الآخرون، ومعهم المرأة العجوز التي راحت تحاول اختراق الجمع.

قال الشرطي: «هذا سجيني، وسآخذه أينما شئت، وأبقيه قدر ما شئت. ما رأيك بهذا؟».

قال الضابط: «بأيّ سلطة يا مسيو؟». كان طويلاً ذا وجه شاحب ومأساوي. ورأيت عندئذ أنّ إحدى عينيه من زجاج، فقد بدت متجمّدة تمامًا، ميتة في وجه يبدو أكثر مواتًا منها.

نظر الشرطي العسكري إلى عضاد ذراعه، ثم إلى الضابط مجدّدًا، ولمس مسدّسه الذي يتأرجح على خاصرته. «سأصحبه في طول هذه البلاد اللّعينة وعرضها. سآخذه إلى مجلس شيوخكم اللّعين وأُقيم الرئيس وأجلسه مكانه، ويمكنك أن تموت غيظًا حتى آتي وأمسح البراز عن قدميك مجدّدًا».

قال الضابط: «آه، أنت جندي أميركي.. فهمت». قال «جندي أميركي» زامًّا شفتيه، ومن دون أن يتحرّك شيء في وجهه الميت،

الذي يشكّل إهانة في حدّ ذاته. ووراءه راحت صاحبة الحانة تصرخ بالفرنسية:

«باش! باش![1] تحطّم! تحطّم! كلّ فنجان، كلّ طبق، كلّ كأس، كلّ صحن... كلّه كلّه! سأريكم، لقد احتفظت بها لهذا اليوم. ثمانية أشهر منذ سقطت القذيفة، احتفظت بها في علبة لهذا اليوم: الأطباق الصحون، الكؤوس، كلّ ما امتلكته خلال ثلاثين عامًا، كلّه دُمّر، تحطّم دفعة واحدة! ويكلّفني خمسين سنتيمًا للكأس بحيث أخزي نفسي لكي أجعل زبائني...».

يصل السأم أحيانًا إلى نقطة، إلى ذروة، لا تحتمل. حتى الكحول لا يمكنه الدنوّ منها. لكنّه يحفّز الغوغاء، مثلما تحفّزها تلك الضعة الكاملة النابعة من الرتابة التي لا تحتمل. ثم بدا كأنّنا جميعًا تخلّصنا من أحمالنا دفعة واحدة، مواجهين بلا خزي ولا تحفّظ الشبح الذي بالغنا طوال أربع سنوات في تزيينه بكلمات كبيرة، مندفعين في كتلة واحدة متراصّة. رأيت الشرطي العسكري يقفز على الضابط، ثم نهض كومين وتصدّى له. رأيت الشرطي العسكري يلكم كومين ثلاث مرّات على فكّه قبل أن يرفعه كومين ويرميه فوق الحشد، حيث اختفى أفقيًّا في الهواء، وهو يحاول

---

(١) Boche: تعبير تحقيري كان يستعمل ضدّ الجندي الألماني خلال الحرب العالميّة الأولى.

سحب مسدّسه. ثم رأيت ثلاثة جنود فرنسيّين على ظهر موناهان والضابط يحاول ضربه بقنّينة، وسارتوريس يقفز على الضابط من الخلف. غاب كومين عن الوعي، ومن الفسحة التي خلّفها مكانه اندفعت مالكة الحانة صارخة، بينما حاول رجلان ردّها إلى الخلف، وهي تحاول أن تبصق على الألماني: «باش! باش!»، راحت تصرخ، وهي تبصق ويسيل لعابها، وقد غطّى شعرها الرمادي وجهها؛ ثم استدارت وبصقت بصقة كاملة عليّ. «وأنتم أيضًا!»، صرخت، «ليست إنجلترا التي دُمّرت! أنتم أيضًا جئتم لتلتقطوا عظام فرنسا. كلاب! عقبان! حيوانات! كل شيء تحطّم! تحطّم! تحطّم!». وفي خضمّ ذلك كلّه، من دون أن ينبسا بحركة أو كلمة، جلس الألماني والصبهدار، الألماني بوجهه الطويل العليل، والصبهدار المقرفص مثل تمثال، وكلاهما يضعان الطربان مثل نبيّين من العهد القديم.

لم يطل الأمر. لا علاقة للوقت بما جرى. أو بالأحرى كنّا نحن خارج الوقت؛ ضمن، وليس في، ذلك السطح، عند الحدّ بين القديم الذي نعرف أنّنا لم نمت فيه، والجديد الذي قال الصبهدار إنّنا موتى فيه. وراء الأيدي التي تلوّح بالقناني والأكمام الزرقاء والأيدي المتّسخة ووجوهنا التي تشبه أقنعة تبتسم ابتسامات صفراء في صرخات متجمّدة معدومة الصوت لتخيف الأطفال، رأيت كومين ثانية. جاء مندفعًا مثل سفينة محمّلة في بحر عاصف؛ تحت

ذراعه كان النادل القديم، وفي فمه صفّارة الشرطي العسكري. ثم قذف سارتوريس كرسيًّا على اللّمبة الوحيدة في المكان.

اخترق صقيع الشارع ثيابنا ومسامّ جلودنا المترعة بالكحول وتسلّل إلى عظامنا. كانت الساحة خالية، والأضواء خافتة وبعيدة. وكان الجوّ هادئًا إلى حدّ أنّني سمعت صوت المياه الراكدة في البركة. من مسافة بعيدة تحت السماء المنخفضة السميكة سمعت صوتًا، صراخًا أنثويًّا حادًّا مثل كلّ الصراخ، ثم صراخ حشد من الرّجال، يقطعه من وقت لآخر صوت فرقة تعزف نشيدًا وطنيًّا. وقف كومين وموناهان مستظلّين بالجدار، محاولين إبقاء الألماني واقفًا على قدميه. كان غائبًا عن الوعي، وكانت الظلمة تكتنفهم باستثناء لمعان الضمّادة الباهت على رأس الألماني، ولم يصل إلى مسامعي من طرفهم سوى سيل الشتائم الرتيبة من فم موناهان.

قال الصبهدار: «لم يكن من المحبّذ أن يتحالف الإنجليز والفرنسيّون». كان يتكلّم بسلاسة؛ بصوت أشبه بصوت الأرغن، لا يتناسب البتّة مع حجمه. «لا ينبغي أن توحّد الأمم المختلفة قواها وتحارب تحت راية واحدة. فلتقاتل كلّ منها لهدف مختلف؛ فلا ينشأ نزاع بينها، ويمضي كلٌّ منها في طريقه». مرّ سارتوريس بنا، آتيًا من البركة، حاملاً بحرص قبّعته المليئة ماء التي تنقّط بين رجليه.

ثم انضمّ إلى الكتلة القاتمة التي تومض فيها الضمّادة ويشتم موناهان برتابة وفتور.

وتابع الصبهدار: «وكلّ واحد يتبع تقاليده. شعبي مثلاً، أعطاه الإنجليز البنادق، فراحوا يحملقون بها ثم جاؤوني قائلين: هذه الحربة قصيرة جدًّا وثقيلة جدًّا: كيف يمكن أن يقتل المرء عدوًّا سريعًا بحربة بهذا الحجم والوزن؟ كما أعطوهم بزّات عسكريّة ينبغي أن تظلّ مزرّرة؛ مررت بمجموعة كبيرة من الجنود الجالسين القرفصاء وقد غطّوا أنفسهم حتى الآذان بالبطّانيّات وبأكياس الخيش، واسودّت وجوههم من البرد؛ وحين رفعت البطّانيّات وجدت أنّهم لا يلبسون السراويل القصيرة».

«يقول لهم الضبّاط الإنجليز اذهبوا إلى هناك وافعلوا كذا؛ فلا يتحرّكون البتّة. ثم ذات يوم، تحت ضوء القمر المكتمل، سمعت الكتيبة حركة تنبعث من وراء حفرة ما فخرجت من الخندق جارّة إيّاي وضابطًا آخر معي. تركنا الخندق من دون أن نطلق رصاصة واحدة، ومن تبقّى منّا، الضابط وأنا وسبعة عشر جنديًّا آخرين، علقنا ثلاثة أيّام على خطوط العدوّ الأماميّة وقد تطلّب الأمر لواء بأكمله لإخراجنا من هناك. سألهم الضابط: لماذا لم تطلقوا الرصاص؟ لقد تركتموهم يتصيّدونكم مثل طيور السمّان. لم ينظر الجنود إليه. وقفوا كالأطفال، صامتين، دونما أيّ إحساس بالخزي. سألت كبيرهم: هل كانت البنادق مذخّرة بالرصاص يا داس؟ فهبّوا

واقفين كالأطفال، دونما أيّ إحساس بالخزي، وقال داس: أوه يا ابن الملوك. فقلت له: قل الحقيقة للسيّد، فأجابني، لا لم تكن البنادق مذخّرة».

سمعنا صوت الكتلة يهدر من بعيد في الهواء البارد. كانوا يسقون الألماني من قنّينة. وقال له موناهان: «والآن أتشعر ببعض التحسّن؟».

قال الألماني: «إنّه رأسي». كانوا يتكلّمون بهدوء كأنّهم يتناقشون حول اختيار ورق الجدران.

شتم موناهان ثانية، وقال: «سأعود لهم. بحقّ الله. ســـ...».

قال الألماني: «لا، لا، لن أسمح بذلك. لقد دافعتم أصلاً...».

وقفنا في العتمة تحت جدار نحتسي الشراب. بقيت معنا قنّينة واحدة. وحين فرغت حطّمها كومين بالجدار.

قال بلاند: «والآن ماذا؟».

قال كومين: «الفتيات، هلاّ يمكنكم تخيّل كومين من الأمّة الأيرلندية بين ذوات الشعر الأصفر مثل كلب بين السنابل؟».

وقفنا هناك، نستمع إلى الجلبة المنبعثة من الحانة. وقال موناهان: «هل أنت متأكّد أنّك بخير؟».

أجابه الألماني: «شكرًا، أشعر أنّني بخير».

فقال كومين: «هيّا بنا إذًا».

وقال بلاند: «هل ستأخذه معك؟».

أجاب موناهان: «أجل، ما المانع؟».

«لمَ لا تأخذه إلى المقرّ؟ إنّه مريض».

فقال موناهان: «أتريدني أن ألكم وجهك اللّعين؟».

قال بلاند: «حسنًا».

قال كومين: «هيّا بنا، قال كومين، أيّ أحمق يتشاجر بدلاً من أن يستمتع بوقته؟ كلّ الرّجال إخوة، وكلّ زوجاتهم أخوات. فهيّا بنا يا جنود منتصف الليل أنتم».

قال بلاند مخاطبًا الألماني: «اسمعني، أتريد الذهاب معهم؟». بدا الألماني والصبهدار، بعصبتي رأسيهما، مثل جنديّين مصابين بين خمسة أشباح.

«أسنده قليلاً»، قال موناهان لكومين. اقترب موناهان من بلاند. وشتمه، قائلاً بالصوت الرتيب نفسه: «أنا أحبّ المشاجرة، وحتى أنّني أحبّ التعرّض للضرب».

وقال الألماني: «مهلاً، مجدّدًا لن أسمح»، توقّف موناهان الذي لا يبعد عنه قدمًا. وقال الألماني: «لديّ زوجة وابن في بايروث». كان يوجّه كلامه إليّ، ثم كرّر لي عنوان بيته مرّتين.

قلت: «سأراسلها، ماذا تريدني أن أقول لها؟».

«قل لها إنّها لا تساوي شيئًا. سوف تعرف ما تقول لها».

«أجل سأقول لها إنّك بخير».

«قل لها هذه الحياة لا تساوي شيئًا».

أمسكه موناهان وكومين من ذراعيه مجدّدًا. استدارا ومضيا وهما يحملانه تقريبًا. نظر كومين مرّة إلى الخلف، قائلاً: «رافقتكم السلامة».

قال الصبهدار: «وأنت أيضًا». ومضيا. رأينا ظلّيهما في العتمة عند مدخل زقاق منير مقنطر، والضوء البارد الخافت يسقط على القنطرة وعلى الجدران جاعلاً مدخل الزقاق أشبه ببوّابة عبراها، مسندين الألماني بينهما.

سأل بلاند: «ما الذي سيفعلونه به؟ هل سيرمونه في زاوية ما ويقتلونه؟ أم ثمّة أسرّة في المواخير الفرنسيّة أيضًا؟».

قلت: «من يهمّه هذا على أيّ حال؟».

انبعث صوت الفرقة الموسيقيّة قويًّا من الحانة. كلّ مرّة كان جلدي يرتعش بفعل الكحول والبرد كنت أحسبني أسمع صوت عظامي.

قال الصبهدار: «منذ سبع سنوات وأنا في هذا المناخ، لكنّني ما زلت لا أحبّ البرد». جاء صوته عميقًا هادئًا، كأنّ طوله ستّ أقدام، كأنّما حين صنعوه قالوا في ما بينهم «سنعطيه شيئًا لكي يحمل رسالته معه؟ لماذا؟ من سيسمع رسالته؟ هو؟ لذا سنعطيه شيئًا يسمعها هو نفسه به».

سأله بلاند: «لمَ لا تعود إلى الهند إذن؟».

فقال: «آه، أنا مثله. أنا أيضًا لا أحبّ أن أكون بارونًا».

«خرجت إذن وتركت الأجانب الذين سيعاملون الناس مثل الثيران أو الأرانب يأتون ويحتلّون الهند».

«بخروجي من هناك أبطلت في يوم واحد ما تطلّب فعله ألفي عام. أوليس هذا بالأمر المهمّ؟».

رحنا نرتعش من شدّة البرد الذي صار هو الفرقة، النشيد الهادر الذي يدمدم بيدين باردتين مخاطبًا العظام، لا الأذنين.

قال بلاند: «حسنًا، أحسب أنّ الحكومة الإنجليزيّة تفعل لتحرير شعبك أكثر ممّا تفعله أنت».

لمس الصبهدار بلاند على صدره، لمسة خفيفة. وقال: «أنت حكيم يا صديقي. فلتسعد إنجلترا لأنّ جميع الإنجليز ليسوا حكماء مثلك».

«إذن ستبقى منفيًّا طوال حياتك؟».

أشار الصبهدار بيده الغليظة القصيرة إلى القنطرة حيث اختفى موناهان وكومين والألماني. «ألم تسمع ما قاله؟ هذه الحياة ليست شيئًا».

قال بلاند: «يمكنك التفكير على هذا النحو، لكن بحقّ الله، أكره أن أفكّر أنّ ما ادّخرته خلال السنوات الثلاث الفائتة لم يكن شيئًا».

قال الصبهدار برقّة: «ادّخرت رجلاً ميتًا، سوف ترى».

وقال بلاند: «ادّخرت قدري، لا أنت ولا أيّ شخص يعرف ما سيكون».

قال الصبهدار: «ما قدرك سوى أن تكون ميتًا؟ من سوء الحظّ أنّ جيلك هو المختار. من سوء الحظّ أنّ أفضل أيّام حياتك ستمضيها ماشيًا الأرض كروح. لكنّ هذا قدرك». جاء الصراخ من بعيد، أنثويًّا وطفوليًّا، ثم الفرقة مجدّدًا، هادرة، مثل صراخ الرجال، مرحة ببؤس، هستيريّة، لكن أكثر من أيّ شيء آخر، بائسة. تثاءبت القنطرة في الضوء البارد بفراغ عميق وصامت، مثل بوّابة تؤدّي إلى مدينة أخرى، إلى عالم آخر. فجأة تركنا سارتوريس. مشى بثبات نحو الجدار واستند إليه، وجعل يتقيّأ.

قال بلاند: «اللّعنة، أريد شرابًا»، التفت نحوي، «أين قنّينتك؟».

«فرغت».

«فرغت أين؟ كان معك اثنتان؟».

«ليس معي واحدة الآن. اشرب ماء».

«الماء؟ من بحقّ الجحيم يشرب ماء؟».

ثم عادت الكرة الساخنة الصلبة إلى معدتي مجدّدًا، جذلة، لا تحتمل، حقيقيّة؛ مجدّدًا تلك اللّحظة التي تقول فيها الآن يمكنني التخلّي عن كلّ شيء، وقلت له: «سوف تشرب الماء أيّها الحقير».

لم يكن بلاند ينظر إليّ. قال بنبرة هادئة شاردة «مرّتين، مرّتين في ساعة واحدة، ما رأيك بهذه الثمالة؟». استدار واتّجه نحو البركة. عاد سارتوريس، ماشيًا بثبات. اختلط صوت الفرقة بالبرد الذي يخترق العظام.

سألت: «كم الساعة الآن؟».

نظر سارتوريس إلى معصمه: «الثانية عشرة».

قلت: «لا يعقل، لا بدّ من أنّنا تجاوزنا منتصف الليل».

قال سارتوريس: «قلت لك إنّها الثانية عشرة».

كان بلاند منحنيًا فوق البركة. كان ثمّة ضوء قليل هناك. حين وصلنا إليه وقف، ماسحًا وجهه. كان الضوء على وجهه وفكّرت

لبعض الوقت أنّه لا بدّ ملأ وجهه كلّه بالماء، حتى اكتشفت أنّه كان يبكي. وقف هناك، يمسح وجهه، ناشجًا، إنّما بصمت.

ثم قال:

«زوجتي الصغيرة المسكينة، زوجتي الصغيرة المسكينة».

انتصار[١]

I

رأى أولئك الذين وقعت عليه عيونهم مترجّلاً من قطار مارساي السريع في «غار دي ليون»[٢] في ذلك الصباح النديّ، رجلاً طويل القامة، يمشي مشية متصلّبة بعض الشيء، برونزي الوجه، مدبّب الشاربين، يغلب على شعره البياض. فقالوا: «هذا ميلورد»[٣] إذ رأوا بزّته الداكنة المهيبة، ولمحوا في يده ذلك العكّاز المهيب، محمولاً بتلك الطريقة المهيبة، بينما انشغلت يده الأخرى في حمل حقيبة صغيرة. فقالوا: «إنّه ميلورد عسكري. لكنْ ثمّة

(١) انتصار: كتبها فوكنر عام ١٩٣١ وضمّنها في العام نفسه مجموعة «١٣ قصّة قصيرة». تختلف آراء النقّاد بشدّة حولها. يعتبرها إدموند فولبي واحدة من أضعف قصص فوكنر القصيرة، بينما يضعها هانز سكي ضمن أفضل ١٢ قصّة كتبها فوكنر. على أيّ حال مثل المعالجة الذي يقدّمها الكاتب لثيمة الحرب وتحديدًا من منظور الجنود الذين خاضوها نجدها برزت في فترة لاحقة في عدد من الأعمال الأدبيّة والفنيَّة التي تقف عند العنف الذي تولّده الحرب في الجنود أنفسهم.

(٢) Gare de Lyon: محطّة ليون. من وإلى جنوب وشرق فرنسا.

(٣) Milord: تحريف فرنسي لتعبير My Lord، سيّدي، ويقصد بها السيّد الإنجليزي النبيل.

خطب ما في عينيه». لكن في ذلك الوقت، في أوروبا قبل أربع سنوات[١]، كان ثمّة خطب ما في عيون جميع الناس، رجالاً ونساء على السواء. تأمّلوه وهو يمشي، مرتفع الرأس شيئًا فوق المارّة الفرنسيّين، فتبرز عيناه العجفاوان الحزينتان وهيئته المكدودة المفعمة عزمًا وثقة بالنفس في آن، ثم وهو يختفي داخل سيّارة أجرة، فحدّثوا أنفسهم قائلين، إذا كانوا قد انشغلوا في أمره أكثر من ذلك على الإطلاق: «سترونه في مكاتب المفوّضيّة أو جالسًا إلى طاولة مقهى ما في إحدى جادّات المدينة، أو في عربة ما بصحبة السيّدات الإنجليزيّات الجميلات في البوا»[٢]. وكان هذا كلّ شيء.

وأولئك الذين رأوه يترجّل من سيّارة الأجرة نفسها في «غار دي نور»[٣]، قالوا في سريرتهم: «هذا الميلورد عائد إلى دياره على وجه السرعة». أمّا الحمّال الذي حمل له حقيبته، متمنّيًا له، بإنجليزيّة مقبولة، صباحًا سعيدًا، ومخبرًا إيّاه أنّه سيسافر إلى إنجلترا، فلم يتلقّ منه، كجواب، إلاّ تلك النظرة الإنجليزيّة الباردة التي توقّعها على الأرجح، قبل أن يضعه في مقصورة الدرجة

---

(١) عند نهاية الحرب العالميّة الأولى.

(٢) Bois de Boulogne: حديقة معروفة إلى الغرب من العاصمة باريس، كانت تعدّ من المناطق الراقية في المدينة.

(٣) Gare du Nord: محطّة الشمال. المحطّة التي تقود إلى شمال فرنسا، وإلى وجهات أوروبيّة أخرى.

الأولى من القطار البحري. وهذا كان كلّ شيء أيضًا. وكان لا بأس بهذا أيضًا، حتى حين ترجّل من المركب في «آميان». فهذا ممّا قد يفعله ميلورد إنجليزي أيضًا. أمّا حين وصل إلى «روزيير»[1] فبدأ الناس ينظرون إليه طويلاً في أثناء مروره وبعده.

حملته سيّارة أجرة عبر شارع خرب بين جدران متهدّمة بلا أبواب ولا نوافذ يستلقي عليها شعاع الغروب متكسّرًا. ومن وقت لآخر وجد الشارع مسدودًا جزئيًّا بركام الجدران المتداعية، حيث تنبت من الحجارة المتصدّعة أعشاب هزيلة، ومرّ بأفنية مهجورة ومخرّبة، رأى في أحدها دبّابة مقلوبة جانبًا بين الأعشاب الضارّة المتعفّنة وقد علاها الصدأ. كانت هذه «روزيير»، لكنّه لم يتوقّف هناك إذ ما من أحد هناك، ولا مكان يحتاج إلى أن يتوقّف عنده.

وهكذا، شقّت السيّارة طريقها مترجرجة في شارع موحل محفّر كأنّما تزحف زحفًا من بين الخرائب. وسرعان ما دلفت إلى حيّ من الأبنية الحجريّة الجديدة ذات السقوف الحديديّة أميركيّة الصنع، ثم توقّفت أمام البناء الأطول الذي لا يختلف في هيئته عن غيره من الأبنية: جدار فيه باب وواجهة من الزجاج الأميركي

(١) Rozières-en-Beauce: قرية في إقليم لوار في وسط غرب فرنسا.

نُقشت عليها كلمة «مطعم». وقال له السائق: «هذا هو العنوان يا سيّدي».

ترجّل الراكب، حاملاً حقيبته ومعطفه الطويل وعكّازه المهيب. دخل إلى صالة واسعة عارية تثير جدرانها الجصيَّة الحديثة إحساسًا بالبرد، وتحتلّ وسطها طاولة بلياردو تحلّق حولها ثلاثة رجال، بادره أحدهم قائلاً: «بونجور مسيو».

لم يردّ الداخل الجديد. بل اجتاز الغرفة، مارًّا بالمشرب الجديد المصنوع من الزنك، واقترب من غرفة بابها مفتوح جلست فيها امرأة قد تكون في أيّ سنّ ضمن الأربعين، رفعت نظرها عن قطعة قماش تشتغل على حياكتها.

قال: «بونجور مدام. دورمي مدام؟»[١].

ألقت عليه نظرة واحدة، موجزة وجامدة، ثم أجابته وهي تنهض: «سي سا مسيو».

«دورمي مدام؟»، قال ثانية رافعًا صوته قليلاً، وقد بدت قطرات مطر على شاربيه المدبّبين قليلاً، وتحت عينيه المجهدتين إنّما الواثقتين: «دورمي مدام؟».

قالت المرأة: «بون مسيو، بون، بون».

---

(١) بالأصل بفرنسيّة مشوّهة: «Bong jour, madame, dormie, madame?»: «مرحبًا سيّدتي، أأجد غرفة نوم لديك؟».

وهمّ الرجل بالقول ثانية: «دور...»، عندما لمس أحدهم ذراعه، كان الرجل الذي حيّاه عند طاولة البلياردو حين دخل.

قال الرجل: «ريغارد، مسيو لانجليز»[١]، وهو يأخذ منه الحقيبة ويرفع ذراعه الأخرى مشيرًا ناحية السقف، «لا شامبر»، لامسًا إيّاه ثانية. وضع راحته على وجهه وأغمض عينيه، ثم أشار مجدّدًا إلى الأعلى واجتاز الغرفة باتّجاه سلّم خشبي بلا درابزين. أثناء مروره بالمشرب حمل شمعة (كانت الصالة الواسعة كما الغرفة التي جلست فيها المرأة مضاءة بلمبة تتدلّى من سلك كهربائي) وأشعلها عند قاعدة السلّم.

ارتقيا السلّم يسبقهما ظلاّهما المتقطّعان، إلى رواق ضيّق وبارد ومعتم كقبر، كُسيت جدرانه بجصّ أشدّ سماكة لم يجفّ تمامًا بعد، أمّا الأرضيّة الخشبيّة فخلت من السجّاد أو الطلاء، والتمعت بصورة متماثلة المقابض المعدنيّة الرخيصة لأبواب الغرف، بينما جثم الهواء البليد مثل يد فوق الشمعة. دلفا إلى غرفة تفوح منها أيضًا رائحة الجصّ الرطب وأكثر بردًا من الرواق حتى؛ كان البرد فيها شبه مادّي كأنّما الهواء المحصور بين جدران الغرفة الميتة يتخثّر، مثل قطعة حلوى تجمّدت في ثوان. كان في الغرفة سرير ونضد وكرسي، إضافة إلى مغسلة وحنفيّة وحوض استحمام طليت

---

(١) بالأصل بالفرنسيّة: «Regardez, Monsieur l'Anglais»: «أنظر أيّها السيّد الإنجليزي».

جميعها بالمينا الأميركي. حين لمس المسافر ملاءة السرير الكتّان لم يحسّ بخشونتها بقدر ما أحسّ بها رطبة في الهواء الميت الذي تتخثّر فيه أنفاسه وأنفاس مرافقه فوق الشمعة الذابلة.

وضع المضيف الشمعة على النضد، «العشاء مسيو؟»[١]. حدّق المسافر به، متنافرًا مع ملابسه المهيبة، وقد طفح وجهه بذاك التعب، والتمع شارباه المشمّعان كحربتين مثلومتي الرأس فوق ربطة عنق ذات خطوط مائلة ملوّنة بألوان ما كان ليعرف المضيف بأنّها الألوان النمطيّة لفرقة عسكريّة اسكتلنديّة. «مانجيه؟»، هتف مومئًا بصمت، «مانجيه؟»، بينما تضخّم ظلّ يده وهي تؤشّر إلى الأرضيّة.

صاح المسافر بدوره: «أجل»، رغم أنّ وجهه يكاد يكون ملاصقًا لوجه المضيف، «أجل، أجل».

أومأ المضيف برأسه بقوّة، وأشار ناحية الأرضيّة ثم ناحيته، ثم أومأ ثانية، وغادر الغرفة.

في الأسفل وجد المرأة في المطبخ، أمام الموقد، قال لها: «يريد أن يأكل».

«كنت أعرف ذلك».

---

(١) بمعنى «أترغب في تناول الطعام؟».

«يحسبهم المرء سيبقون في ديارهم، يسرّني أنّني لم أولد في شعب محكوم بلعنة العيش في مكان أصغر من أن يتّسع لجميع أبنائه».

«لعلّه جاء لمشاهدة آثار الحرب».

«بالتأكيد، لكن كان يجدر به المجيء قبل أربع سنوات عندما كنّا في حاجة إلى أن يشاهد الإنجليز الحرب»[١].

«كان أكبر سنًّا من أن يأتي وقتذاك، ألم ترَ شعره؟».

«فليبق في دياره الآن أيضًا، فهو لم يزدد شبابًا».

«ربّما جاء لزيارة ضريح ابنه».

«هو؟ هذا الرجل؟ إنّه أشدّ برودة من أن يكون له ابن».

«لعلّك محقّ، لكنّه شأنه في نهاية الأمر، أمّا ما يهمّنا نحن فهو أنّه يملك المال».

«هذا صحيح، في مجال عملنا لا نستطيع انتخاب الأفضل».

«أمّا هو فيمكنه الانتخاب».

---

(١) من المعروف أنّ إنجلترا كانت مشاركة في الحرب العالميّة الأولى إلى جانب فرنسا، لكنّ المقصود هنا على الأرجح القصف الجوّي العنيف والمباغت الذي تعرّضت له مدينة «آميان» من قبل سلاح الجوّ الألماني قرب نهاية الحرب العالميّة الأولى.

«هذا حسن، حسن جدًّا! الانتخاب! هذا كلام جدير بأن يقال للإنجليزي نفسه».

«لمَ لا ندعه يكتشف ذلك حين يحين أوان مغادرته؟»[١].

«حسن، هذا أفضل حتى. جيّد! أوه جيّد!».

«صه، إنّه آت».

أصاخا السمع إلى خطوات المسافر الثابتة، قبل أن يظهر عند الباب. على خلفيّة الضوء الخافت في القاعة الواسعة بدا وجهه وشعره الأبيض مثل سالب صورة فوتوغرافيّة.

جلس إلى مائدة أُعدّت لشخصين، وُضع عليها إبريقا نبيذ. بعد قليل دخل ضيف آخر واحتلّ الكرسي الثاني ــ رجل قصير، دقيق الوجه، بدت عيناه لأوّل وهلة بلا رموش تمامًا. وضع المنديل أعلى صديريّته وحمل المغرفة (كانت السلطانيّة بينهما وسط الطاولة) وقدّمها للمسافر، قائلاً:

«Faites-moi l'honneur, monsieur»[٢].

أحنى المسافر رأسه، متقبّلاً منه المغرفة. رفع الرجل الصغير غطاء السلطانيّة، وبدأ يسكب لنفسه مخاطبًا الرجل:

---

(١) الأرجح أنّ المقصود هنا الفاتورة الباهظة التي سيكون على الضيف دفعها حين يأتي وقت مغادرته.

(٢) «اسمح لي بهذا الشرف يا سيّدي».

«Vous venez examiner ce scène de nos victoires, monsieur?»[١].

نظر الآخر إليه.

«Monsieur l'Anglais a peut-être beaucoup des amis qui sont tombés en voisinage»[٢].

قال المسافر متشاغلاً بالأكل: «لا أعرف الفرنسيّة».

لم يأكل الرجل شيئًا. حمل ملعقته فوق طبقه، وقال: «كم هذا مناسب لي. أنا أتكلّم الإنجليزيّة. أنا سويسري، وأتكلّم كلّ اللغات». لم يردّ الآخر. راح يأكل بثبات وبطء. «أعدت لكي تزور أضرحة أبناء بلدك البواسل؟ ألديك ابن هنا؟».

أجابه الآخر: «لا» دون أن يتوقّف عن الأكل.

«لا؟». أنهى المسافر حساءه وأزاح الطبق جانبًا. وارتشف بعض النبيذ. قال السويسري: «كم هو مؤسف، لكن الآن انتهى الأمر أليس كذلك؟». مجدّدًا لم يردّ الآخر، من دون أن ينظر إلى محدّثه، بل بدا لا ينظر إلى أيّ شيء، بعينيه المجهدتين، وشاربيه المشدودين على وجهه المشدود. وتابع السويسري: «أنا عانيت

---

(١) «جئت لكي تشهد على انتصارنا يا سيّدي؟».

(٢) «ربّما السيّد الإنجليزي لديه الكثير من الأصدقاء في الجوار».

أيضًا. كلّنا عانينا. لكنّني أقول لنفسي ما الذي كنت تتوقّعه؟ إنّها الحرب».

لم يردّ الآخر. أكل بثبات وتصميم، حتى أنهى وجبته ونهض وغادر الغرفة. أشعل شمعته عند المشرب، حيث يقف المضيف بجوار رجل آخر يرتدي معطفًا مخمليًّا، ورفع له الكأس ببطء قائلاً: «Au bon dormer, monsieur»[1].

نظر المسافر إلى المضيف، وقد ازداد وجهه نحولاً على ضوء الشمعة، شارباه المشذّبان مشدودان، وعيناه غائمتان، وقال: «ماذا؟»، قبل أن يستدرك، «أجل. أجل». ثم استدار واتّجه صوب السلّم، بينما انصبّت عيون الرجلين الآخرين على ظهره الصلب المشدود.

منذ غادر القطار «آراس»[2]، لم تنفكّ المرأتان تراقبان الراكب الثالث الجالس معهما في مقصورة الدرجة الثالثة التي اضطرّ الأخير إلى القبول بها لأنّه ما من مقصورات درجة أولى على هذا الخطّ. جلستا هناك، وقد اتّشحت كلّ منهما بشال ووضعت يديها الفلاّحيّتين الغليظتين فوق سلّة ذات غطاء في حضنها، ناظرة إلى الرجل – إلى شعره الشائب البارز فوق الوجه البرونزي

(١) «نوم هانئ يا سيّدي».

(٢) Arras: مدينة في شمال فرنسا.

الأعجف، وشاربه المشمّع، وبذلته وعكّازه المهيبين ـــ وقد احتلّ مكانه على مقعد خشبي قديم قذر، ناظرًا من النافذة، غير عابئ بوجودهما، بينما تتهامسان حوله وقد غطّتا وجهيهما بيديهما. لكن لا يبدو أنّ الرجل لاحظ ذلك، وسرعان ما راحتا تتكلّمان بصوت خفيض، شاخصتين بعيون فضوليّة مستنفرة نحو قامته المشدودة الصارمة وهي تميل قليلاً إلى الأمام على العكّاز، وتنظر من النافذة المتّسخة من دون أن يكون هنالك ما يستحقّ المشاهدة، سوى بعض الطرقات المهشّمة وجدعات الأشجار المتناثرة التي لم يعد يتجاوز طول الواحدة منها قامة الإنسان، وقد برزت نافرة فوق الأرض المحروثة عشوائيًّا في جزر متباعدة من الأرض تدلّ إليها يافطات حمراء، وتمتدّ فوق الخراب الذي تحتويه. ثم فجأة مرّ القطار ببطء بين حجارة متهدّمة برز في وسطها بناء من الحديد المتجعّد تعلوه لافتة كبيرة. رأتا الرجل يميل إلى الأمام متفرّسًا في البناء. وقالت إحداهما: «أترين! أترين فمه. إنّه يقرأ الاسم. ماذا أخبرتك؟ مثلما قلت لك، ابنه سقط هنا».

فقالت الثانية: «لديه إذن الكثير من الأبناء، فما فتئ يفعل ذلك منذ غادرنا آراس. إيه! إيه! هذا له ابن؟ هذا الرجل البارد؟».

«أمثاله يكون لهم أبناء مع ذلك».

«ولهذا السبب يحتسون الويسكي... وإلاّ...».

«هذا صحيح، فهم لا يشغل بالهم إلاّ المال والطعام، أولئك الإنجليز».

ثم ترجّلت المرأتان من القطار. ودخل آخرون إلى المقصورة، فلاّحون آخرون ينتعلون جزمات ملطّخة بالطين، ويحملون سلالاً أو حيوانات ميتة أو حيّة، راحوا بدورهم يحملقون في الرجل المشدود، الجامد، الشاخص نحو النافذة بينما يعبر القطار الأرض الخراب ومراكز المحطّات الحديديّة أو الحجريّة بين الخرائب المتناثرة، مراقبين شفتيه تتحرّكان وهما تطالعان الأسماء، مردّدين في ما بينهم: «فلينظر إلى الحرب التي لا بدّ من أنّه سمع أخيرًا بحدوثها، ثم يمكنه العودة إلى دياره. فالقتال لم يتمّ في فناء بيته».

«ولا داخل بيته»، قالت إحدى النسوة.

II

تقف الكتيبة في المطر. مضى يومان على استراحتها في هذا المركز الذي استبدلت فيه المعدّات أو نظّفت، وملئت الشواغر والرتب، وها هم الجنود يقفون غير متأهّبين بين قطيع خراف يتقدّم بخرق تحت المطر الذي لا ينقطع، وقبالتهم وقف الرقيب أوّل يرشح ماء.

عندئذ خرج الكولونيل من حجرة في الطرف المقابل من الساحة. وقف لبرهة عند الباب، مزرّرًا معطفه الواقي من المطر، ثم مشى بجزمته الملمّعة في الوحل يتبعه ضابطان واتّجه نحو الكتيبة.

صاح الرقيب بهم: «رتّبوا الصفوف!»، فصدرت عن كتلة الجنود همهمة جهوريّة موحّدة وحادّة. استدار الرقيب أوّل، خطا خطوة إلى الأمام نحو الضبّاط الثلاثة، وأدّى التحيّة العسكريّة، وعصاه تحت إبطه. لمس الكولونيل طرف قبّعته بعصاه. ثم قال:

«استريحوا أيّها الجنود». مجدّدًا صدر عن الكتيبة ذلك الصوت الموحّد. تقدّم الضبّاط من الفرقة الأولى، واتخذ الرقيب أوّل مكانه خلفهم. تقدّم نقيب الفرقة الثانية وأدّى تحيّة عسكريّة تجاهلها الكولونيل، ثم وقف وراء الرقيب أوّل، ومرّ خمستهم من أمام الفرقة الثانية، ناظرين إلى كلّ وجه مشدود يمرّون به. السريّة الأولى.

حيّا النقيب ظهر الكولونيل وعاد إلى موقعه. ثم تقدّم نقيب الفرقة الثانية، وحيّا الكولونيل تحيّة تجاهلها الكولونيل أيضًا. ثم اتّخذ مكانه وراء الرقيب أوّل، ثم مرّوا من أمام الفرقة الثانية في السريّة، ومعطف الكولونيل الواقي من المطر ما زال يقطر على جزمته الملمّعة فيصير الماء، إذ يمتزج بالتراب، وحلاً.

السريّة الثالثة. تريّث الكولونيل أمام جندي، وقد نتأ معطفه فوق كتفيه مستقبلاً المطر الذي ينهمر من قبّعته، فبدا أشبه بصقر يتحفّز للانقضاض. واتّخذ الآخران، النقيب والرقيب أوّل مكانيهما وراء الضابطين، وراح خمستهم يحملقون في الجنود الخمسة الواقفين قبالتهم ينظرون قُدُمًا بصرامة، محاذرين ألاّ ترمش عيونهم التي استحالت خشبيّة مثل وجوههم.

صرخ الكولونيل بعصبيّة: «أيّها النقيب، هل حلق هذا الجندي ذقنه اليوم؟».

«سيّدي!»، ردّ النقيب بصوت جهوري. ثم صاح الرقيب أوّل:

«هل حلق هذا الرجل ذقنه اليوم، أيّها النقيب؟». وراح خمستهم يحدّقون بالجندي، الذي بدت نظراته الصارمة تعبرهم وتتجاوزهم، كأنّهم لا يقفون أمامه. وصاح الرقيب أوّل به: «تقدّم خطوة إلى الأمام حين تتكلّم».

يخرج الجندي الذي لم يتكلّم بعد من الصفّ، فيطرطش الوحل عاليًا على جزمة الكولونيل. يسأله الأخير:

«ما اسمك؟».

يجيب الجندي بسرعة وبصوت عال: «٠٢٤١٨٦، غراي». الفرقة، الكتيبة برمّتها، تنظر بصرامة أمامها.

يصيح الرقيب أوّل: به «سيّدي».

يكرّر الجندي بعده: «سيّدي».

يقول الكولونيل: «هل حلقت ذقنك هذا الصباح؟».

«لا سيّدي».

«لمَ لا؟».

«لم أحلق سيّدي».

«لم تحلق؟».

«لست كبيرًا كفاية لأحلق ذقني».

يصيح الرقيب أوّل: «سيّدي!».

يكرّر الجندي بعده: «سيّدي».

«أنت لست...»، يتبدّد صوت الكولونيل في مكان ما وراء نظراته الحادّة، والمياه المنهمرة من مقدّم قبّعته، ثم يقول، مستأنفًا سيره: «خذ اسمه أيّها الرقيب أوّل».

ينظر الجنود بصرامة أمامهم. وسرعان ما يرون الكولونيل وخلفه الضابطان والرقيب أوّل وقد عاودوا الظهور في صفّ واحد. يقف الرقيب أوّل في المكان المناسب محيّيًا ظهر الكولونيل ويعود إلى مكانه. يؤدّي الجنرال التحيّة بيده المتصلّبة ويمضي، يتبعه الضابطان، نحو الباب الذي خرج منه.

يقف الرقيب أوّل قبالة الكتيبة مجدّدًا، ويصيح: «تأهّبوا». فتنتقل حركة مبهمة من صفّ إلى صفّ، تمهيدًا لتلك الدمدمة الموحّدة التي سرعان ما تتبدّد. عصا الرقيب أوّل لم تعد تحت إبطه؛ هو الآن يستند إليها، مثلما فعل الضبّاط، منقّلاً نظره بين جنود الصفّ الأمامي، قبل أن ينادي:

«أيّها النقيب كانينغهام!».

«سيّدي!».

«هل سجّلت اسم ذلك الجندي؟».

يسود صمت لبرهة ــ أكثر بقليل من برهة وجيزة، وأقلّ بقليل من برهة طويلة. ثم يقول النقيب: «أيّ جندي سيّدي؟».

«أنت أيّها الجندي!».

تقف الكتيبة مشدودة. يهطل المطر خفيفًا على الوحل بين الجنود والرقيب أوّل كأنّه أكثر إنهاكًا من أن يهطل أغزر أو يتوقّف عن الهطول.

يقول الرقيب أوّل: «أنت أيّها الجندي الذي لم يحلق!».

يقول النقيب: «غراي سيّدي!».

«غراي، تقدّم إلى هنا».

فيتقدّم الجندي بسرعة ويقف مشدود القامة أمام الكتيبة، وكِلْتِيَّته[١] قاتمة ورطبة وثقيلة مثل سرج جواد مبلّل. يقف مواجهًا الرقيب أوّل.

يقول الرقيب أوّل: «لماذا لم تحلق هذا الصباح؟».

فيجيب غراي: «لست كبيرًا كفاية لأحلق ذقني».

يقول النقيب: «سيّدي!، يقول الرقيب أوّل».

يحدّق غراي إلى ما بعد كتفي الرقيب أوّل الذي يصيح به: «قل سيّدي حين تخاطب من هو أعلى رتبة منك!». غراي يحدّق بصرامة وراء كتفيه، ووجهه تحت القبّعة ساه عن رشّات المطر البارد كأنّه من الرخام. يصيح الرقيب أوّل:

«سرجنت كانينغهام!».

«سيّدي!».

«سجّل اسم هذا الرجل في خانة العصيان أيضًا».

«حاضر سيّدي!».

---

(١) Kilt: التنّورة الرجاليّة الاسكتلنديّة المعروفة. كانت الفرق العسكريّة الاسكتلنديّة رغم قتالها خلال الحرب العالميّة الأولى تحت القيادة البريطانيّة تلتزم ارتداء هذه التنّورة التقليديّة.

ينظر الرقيب أوّل إلى غراي مجدّدًا: «وسأحرص على نقلك إلى كتيبة العقوبة[1]، عد إلى مكانك».

يعود غراي بسرعة إلى مكانه في الصفّ، تحت أنظار الرقيب أوّل الذي يصيح مجدّدًا:

«سرجنت كانينغهام!».

«سيّدي».

«لم تسجّل اسم الرجل حين أمرت بذلك. إذا تكرّر الأمر فستعاقب نفسك بنفسك».

«حاضر سيّدي».

«تابع»، يقول الرقيب أوّل.

حين عادوا إلى عنبرهم وهو كناية عن حظيرة حجريّة اسودّت جدرانها ولا يدخلها الضوء، سأله رفيقه: «ولكن لماذا لم تحلق؟». كانا جالسين القرفصاء في الهواء الخانق على قشّ مبلّل حول برميل حديدي أُشعلت في داخله النار: «كنت تعلم أنّه سيكون هناك تفتيش هذا الصباح».

فقال غراي: «لست كبيرًا كفاية لكي أحلق ذقني».

«لكنّك كنت تعلم أنّ هذا الكولونيل سيلاحظك في الصفّ».

---

(١) عقوبة بالسجن تصل إلى ستّة أشهر أو تتجاوزها قليلاً.

كرّر غراي بعناد وبصوت بارد: «لست كبيرًا كفاية لكي أحلق ذقني».

III

«منذ مائتي عام»، قال ماثيو غراي، محنيًا رقبته، ناظرًا إلى الفتى أليك من وراء نظّارتيه المعدنيّتين: «لم يمرّ يوم، خلا يوم الأحد، لم تدخل أو تخرج فيه سفينة من نهر كلايد[1]، إلاّ وفيها مسامير دقّها فيها واحد من آل غراي». ليضيف بفخر بالغ: «بل إنّهم يؤثرون أن يمضوا يوم الأحد أيضًا حاملين المطرقة والمنشار، على الذهاب إلى الكنيسة، لأنّه إذا كان يمكن بناء سفينة في يوم واحد، فإنّ آل غراي هم أهل ذلك. ويومًا ما ستكبر كفاية وتذهب إلى ورش صنع السفن برفقة جدّك ورفقتي وتصبح جديرًا بحمل المطرقة والمنشار وتحتلّ مكانك بين الرجال».

قال العجوز أليك: «مهلك يا ماثيو، الشابّ يستطيع نشر الأخشاب باحتراف لا يقلّ عنّي وعنك، ويدقّ يوميًّا من المسامير قدر ما تدقّه أنت، بل وحتى أنا».

---

(١) Clyde River: ثالث أكبر نهر في اسكتلندا، يشتهر بورش بناء السفن.

لم يعر ماثيو أباه اهتمامًا. تابع التكلّم بكلمات بطيئة أمعن التفكير فيها، شاخصًا إلى ابنه الأكبر من وراء نظّارتيه: «وبما أنّ جون ويسلي ما زال بحاجة إلى عامين، وماثيو الصغير إلى عشرة، وجدّك سيصير عجوزًا عمّا قريب...».

«صه»، قال العجوز أليك: «لست إلاّ في الثامنة والستّين. هل تقول للفتى إنّه حين يعود من لندن سيجدني في دار الفناء؟ ستنتهي الحرب بحلول الكريسماس».

قال ماثيو: «بحلول الكريسماس أو سواه، إنّ واحدًا من آل غراي، بنّاء سفن، لا شأن له في حرب إنجليزيّة».

قال العجوز أليك: «صه أنت». نهض واتّجه إلى رفّ المدفأة وعاد حاملاً علبة صُنعت من الخشب الداكن وصُقلت بفعل الزمن، وأُحكمت زواياها الأربع بالحديد، وأحيطت بقفل حديدي كبير إلى حدّ يستطيع أيّ طفل أن يفتحه مستعينًا بدبّوس. أخرج من جيبه مفتاحًا حديديًّا يكاد يوازي القفل حجمًا، وفتح العلبة وأخرج منها بعناية علبة مجوهرات مخمليّة. على البطانة الساتان للعلبة ثمّة ميداليّة، قطعة برونزيّة لُفّت بوشاح قرمزي: وسام فيكتوريا كروس(١).

(١) أرفع وسام عسكري ضمن دول الكومنولث يُمنح للبسالة في القتال، بصرف النظر عن الرتبة العسكريّة. أنشأته الملكة فيكتوريا عام ١٨٥٦،

قال العجوز: «واظبت على إخراج السفن من كلايدماوث[١] بينما ذهب عمّك سايمون لكي يستحقّ هذه الميداليّة البرونزيّة من الملكة. لم أسمع أحدًا يشكو. وإذا تطلّب الأمر سأستمرّ في بناء السفن بينما يقوم أليك بخدمة الملكة قليلاً هو الآخر. دع الفتى يذهب». وأعاد الميداليّة إلى العلبة الخشبيّة وأقفلها. ثم قال: «بعض القتال لن يضرّ الفتى، لو كنت في عمره أو حتى في عمرك لكنت ذهبت أنا أيضًا. اسمع يا أليك لو كانوا يرضون بعجوز مثلي في الثامنة والستّين لكنت ذهبت معك وتركت العجائز أمثال ماثيو يفعلون ما شاؤوا. لا يا ماثيو لا تمنع الفتى؛ أوليس دأب آل غراي أن يخدموا الملكة في وقت الحاجة؟».

فارتدى الشابّ أليك ثياب الأحد لكي يلتحق بالجنديّة، هابطًا الرابية في باقي أيّام الأسبوع، حاملاً الإنجيل ورغيف خبز لُفّ في منديل. وكان هذا آخر يوم عمل بالنسبة إلى العجوز أليك، فبعد فترة قصيرة من ذلك هبط ماثيو الرابية إلى حوض السفن وحده، تاركًا أباه في البيت. وبعد ذلك، في الأيّام المشمسة (وأحيانًا في الأيّام الماطرة أيضًا، حتى تجده كنّته وتدخله إلى البيت) تجده جالسًا على الشرفة متلفّعًا بشاله شاخصًا نحو الجنوب والشرق، مناديًا من

= وتقضي العادة أن يتمّ منحه من قبل الملك أو الملكة مباشرة في قصر باكنغهام.

(١) منطقة الطبقة العاملة في غلاسغو.

وقت لآخر على كنّته من داخل المنزل: «اسمعي جيّدًا الآن. أتسمعين هدير البنادق؟».

فتردّ الكنّة: «لا أسمع شيئًا، ليس إلاّ البحر في كينغدبايت[١]. ادخل الآن إلى البيت، سيغضب ماثيو من هذا الحال».

«اسكتي يا امرأة. أتحسبين أنّ ثمّة واحدًا من آل غراي في هذا العالم يطلق الرصاص ولا أميّز صوته؟».

وصلتهم رسالة منه بعد فترة وجيزة من التحاقه بالجنديّة، يخبرهم فيها أنّ إنجلترا، وهو أحد جنودها، تختلف عن كلايدسايد[٢] وعن بناء السفن، وأنّه سيراسلهم لاحقًا. وصار يراسلهم كلّ شهر أو نحوه، قائلاً إنّ الجنديّة تختلف عن بناء السفن، وإنّها ما زالت تمطر. ثم انقطعت أخباره سبعة شهور. لكن والديه استمرّا في إرسال رسالة مشتركة له أوّل اثنين من كلّ شهر، وكان فحوى كلّ رسالة يأتي مطابقًا تقريبًا للرسالة السابقة:

نحن بخير. السفن تخرج من كلايد بأسرع ممّا يستطيعون إغراقها. أما زال الإنجيل في حوزتك؟

---

(١) خليج معيّن، الاسم من اختراع فوكنر.

(٢) هي نفسها كلايدماوث.

كان هذا الجزء يأتي بخطّ بيد أبيه البطيء الخشن. يليه بيد أمّه:

أأنت بخير؟ أتحتاج إلى أيّ شيء؟ أنا وجسي نَحُوكُ الجوارب وسنرسلها عمّا قريب. أليك. أليك.

تلقّى هذه الرسالة خلال الأشهر السبعة من سجنه، وقد أحضرها له زميله، إذ إنّه لم يخبر عائلته عن التغيّر الذي طرأ على حياته. أجاب على الرسالة، متواريًا بين زملائه المحكومين، مقعيًا في الوحل، حاشرًا الصحف في سترته العسكريّة، ولافًّا رأسه وقدميه بمزق من ملاءته.

أنا بخير. أجل ما زال الإنجيل معي (من دون أن يخبرهم أنّ فرقته تستعمل أوراقه لإشعال التبغ بها وأنّهم تجاوزوا «المراثي»). ما زالت تمطر. حبّي لجدّي وجسي وماثيو وجون ويسلي.

ثم انتهت مدّة عقوبته. وعاد إلى فرقته القديمة، ليجد فيها بعض الوجوه الجديدة، ورسالة من أهله:

نحن بخير. السفن ما زالت تخرج من كلايد. أصبح لك أخت جديدة. أمّك بخير.

طوى الرسالة ووضعها جانبًا، وقال لرفيقه: «أرى وجوهًا كثيرة جديدة في الفرقة، أصبح لدينا رقيب أوّل جديد أيضًا، أليس كذلك؟.

أجاب العريف، متفرّسًا في وجه غراي: «لا، ما زال هو نفسه. لقد حلقت ذقنك هذا الصباح».

قال غراي: «أجل، لقد أصبحت الآن كبيرًا كفاية لأحلق ذقني».

تلك كانت الليلة التي ستنطلق فيها الفرقة إلى آراس عند منتصف الليل. فأجاب فورًا على الرسالة:

أنا بخير. أرسل حبّي لجدّي وجسي وماثيو وجون ويسلي والطفلة.

هتف الجنرال «عمتم صباحًا! عمتم صباحًا!»، متدثّرًا ببطّانيّة من خاصرته نزولاً، ومعتمرًا قلنسوته، ملوّحًا من سيّارته ومحيّيًا إيّاهم بابتهاج أثناء مرورهم بعربته على طريق بابوم[1]، متّخذين دربهم في قناة محفورة على جانب الطريق.

قال أحدهم: «يا للعجوز المبتهج!».

---

(١) Bapaume: بلدة صغيرة تقع على بعد عشرين كيلومترًا إلى جنوب آراس، تشهد عادةً تساقط أمطار غزيرة.

«يا للضبّاط»، تشدّق آخر؛ وراح يشتم وهو ينزلق على الأرض الطينيّة الموحلة، محاولاً التشبّث بحافّة القناة التي يصل عمقها إلى حدّ الركبتين.

وقال ثالث: «أولئك الضبّاط سيذهبون إلى الحرب أيضًا، شاؤوا ذلك أم أبوا».

وقال رابع: «لمَ لا يذهبون إذن؟ الطريق إلى الحرب ليست في الاتّجاه المعاكس».

فصيل تلو الآخر، اجتازوا القناة وهم يجرّون أقدامهم المتثاقلة على الطين، تجاوزوا سيّارة الجنرال ثم زحفوا صعودًا إلى الطريق: «يقول لي: فريتز لديه سلاح جديد يصل مداه إلى باريس، وأقول له: هذا ليس بالأمر المهمّ: لديّ سلاح قادر على تدمير مقرّات جنودنا»(١).

يتابع الجنرال التلويح بقفّازه والهتاف بابتهاج «عمتم صباحًا! عمتم صباحًا!» بينما تنعطف الكتيبة نحو القناة وتجرّ نفسها صعودًا إلى الطريق ثانية.

---

(١) فريتز Fritz كنية لفردريك، كانت قوّات الحلفاء خلال الحرب العالميّة الأولى تستعمله للإشارة إلى الألمان، سواء كجماعة أم كأفراد.

إنّهم في الخندق. وقبل أن تتفجر القذيفة الأولى في وجوههم لم يكونوا قد أطلقوا رصاصة واحدة.. يزحف غراي ثالثًا بين النيران من حفير إلى آخر، ويدنو شيئًا فشيئًا من الرقيب أوّل والضابط؛ في لمعان تلك القذيفة الأولى رأى الفتحة في الشريط الشائك التي كان الضابط يقودهم نحوها، ورأى الأثلام المروّسة في الشريط التي أزال الرصاص عنها الطين والصدأ، وفي الوميض الخاطف رأى الرقيب أوّل مائلاً إلى الأمام بقامته الطويلة. ثم مدّ غراي حربة بندقيّته إلى الخندق الذي يضجّ بصرخات الألم المكتومة.

تصاعدت خطوط النيران بالعشرات نحو السماء، وفي انطفاء الوميض رأى غراي الرقيب أوّل وهو يرمي بمنهجيّة القنابل اليدويّة إلى الحفير التالي في الخندق. يتبعه غراي مارًّا بالضابط المنحني أرضًا. يختفي الرقيب أوّل وراء الحفير ويتبعه غراي. يزيح الرقيب أوّل الستارة الخيش جانبًا بإحدى يديه، وباليد الأخرى يتحضّر لإلقاء قنبلة إلى الحفير كأنّه يرمي قشرة برتقالة إلى قبو.

يلتفت الرقيب أوّل إلى وميض القذيفة، ويقول: «هذا أنت يا غراي». تنفجر القنبلة مجلجلة؛ يتحضّر لالتقاط قنبلة أخرى من جراب حول عنقه، وفي تلك اللحظة تنغرز حربة غراي في حلقه. الرقيب أوّل، وهو رجل ضخم، يهوي إلى الخلف، متشبّثًا بكلتا يديه بمخزن الرصاص في بندقيّة غراي، محاولاً سحب الحربة، أسنانه

تلمع، ويجرّ غراي معه. غراي يتشبّث بالبندقيّة. يحاول أن يهزّ جسد الرقيب أول كأنّه يهزّ مظلّة لإسقاط فأر عنها.

يحرّر الحربة. يسقط الرقيب أول. غراي يحمل البندقيّة بالمقلوب ويروح يضرب بعقبها الرقيب أول على وجهه، لكنّ التربة على أرضيّة الخندق ألين من أن تسند رأسه جيّدًا. ينظر حوله. يرى عارضة خشبيّة منغرزة في الطين. فيجرّها ويضعها تحت رأس الرقيب أول ويضربه مجدّدًا بعقب البندقيّة. وراءه، عند الحاجز الأول، يصرخ الضابط: «أطلق الصافرة أيّها الرقيب أول!».

IV

جاء في رسالة التنويه ببطولته كيف تولّى المجنّد غراي القيادة، أثناء غارة ليليّة، كان أحد أربع ناجين منها، بعد إصابة الضابط ومقتل جميع الرتباء، (كان الهدف القيام بهجوم خاطف لتحرير المعتقلين)، ثم تمترس في الخطوط الأماميّة للعدوّ حتى وصلته المساندة وأمّن الموقع. روى الضابط الذي كان حاضرًا أنّه أمر الجنود بالتخلّي عنه والانسحاب لإنقاذ أنفسهم، وأنّ غراي ظهر حاملاً رشّاشًا ألمانيًّا جاء به من مكانٍ ما، وبينما بنى رفاقه الثلاثة

متراسًا، أخذ مسدّس الإشارة من الضابط وأطلق الشارة الملوّنة التي تدعو إلى الهجوم؛ تمّ هذا كله بسرعة شديدة بحيث وصل الإسناد قبل أن يقوم العدوّ بهجوم مضادّ أو بقصف مدفعي لمنع تقدّمهم.

من المشكوك به أن تكون عائلته رأت التنويه على الإطلاق. على أيّ حال، فإنّ فحوى الرسائل التي وصلته منهم خلال مكوثه في المستشفى، لم تتغيّر:

نحن بخير. السفن ما زالت تخرج.

جاءت رسالته التالية مجدّدًا بعد أشهر. كتبها حين صار بإمكانه الجلوس مجدّدًا، في لندن:

كنت مريضًا لكنّني بتّ الآن أفضل حالاً. تلقّيت ميداليّة تنويه مثل تلك التي في العلبة، لكنّها ليست أرجوانيّة تمامًا. كانت الملكة هناك. سلامي إلى جدّي وجسي وماثيو وجون ويسلي والطفلة.

وصله الردّ يوم جمعة:

أمّك سعيدة لتحسّنك. جدّك مات. أسمينا الطفلة إليزابيث. نحن بخير. أمّك تبلغك السلام.

وجاءت رسالته التالية بعد ثلاثة أشهر، مجدّدًا في الشتاء:

لقد تعافيت. سوف أنتسب إلى كلّيّة الضبّاط. سلامي لجسي وماثيو وجون ويسلي وإليزابيث.

تأمّل ماثيو غراي هذه الرسالة طويلاً؛ طويلاً جدًّا بحيث تأخّر ردّه أسبوعًا، إذ كتبه في الإثنين التالي بدل الأوّل من الشهر. كتبه بعناية، منتظرًا خلود الجميع إلى أسرّتهم. كانت رسالة طويلة، أو أنّه أمضى في كتابتها وقتًا طويلاً، بحيث إنّ زوجته دخلت بعد مدّة إلى الغرفة بقميص نومها لكي تتفقّده. فقال لها: «ارجعي إلى السرير، سآتي قريبًا. إنّه شيء يجب أن أقوله للفتى».

أخيرًا، حين وضع القلم من يده، ومال إلى الوراء لكي يقرأ الرسالة، كانت طويلة، مكتوبة ببطء وعناية ومن دون مراجعة أو توقّف:

... وسامك الصغير... إذ هنا يكمن التبجّح والكبرياء. تبجّح وكبرياء الذهاب لدراسة صفّ الضبّاط. لا تنكر أصلك يا أليك. لست برجل أرستقراطي. أنت بنّاء سفن اسكتلندي. لو كان جدّك هنا فلن يكون آخر من يقول لك ذلك... نحن سعداء بتحسّن صحّتك. أمّك تبلغك السلام.

أرسل الميداليّة إلى المنزل، مع صورته بالبزّة العسكريّة الجديدة والشارات والشرائط والكمّين المخطّطين. لكنّه لم يذهب بنفسه إلى الديار. عاد إلى فلاندرز في الربيع، حين بدأ زهر الخشخاش يلوح في حقول الكرنب والشمندر. أمّا الإجازات فصار يمضيها في لندن، بصحبة الضبّاط، من دون أن يخبر عائلته أنّه في إجازة.

ظلّ الإنجيل بحوزته. من وقت لآخر كان يفتحه عند الصفحة المطويّة حيث تغيّرت حياته: «... وخاطبه صوت، يا بطرس، قم؛ اقتل...».

غالبًا ما كان مرافقه يراه، حين يقوم، على غفلة وبدون انتباه، يفتح الكتاب على الصفحة المطويّة ــ الضابط المستوحش، بوجه متجهّم يضلّل سنّه الحقيقيّة أو يعبّر عن افتقاره إلى سني عمره، طافح بالجدّيَّة والرصانة والإيمان الراسخ (كأنّه يحسب نفسه «هايغ»[1] شخصيًّا، قال المرافق في سرّه) مراقبًا إيّاه جالسًا إلى نضده النظيف، وهو يكتب ببطء ومثابرة، وقد برز لسانه جانبًا إلى وجنتيه مثل طفل يكتب:

إنّني بخير. لم تمطر منذ أسبوعين. سلامي إلى جسي وماثيو وجون ويسلي وإليزابيث.

قبل أربعة أيّام عادت الكتيبة من خطوط القتال وقد فقدت رائدها ونقيبين ومعظم الرتباء، فأصبح النقيب المتبقّي رائدًا، وتولّى ملازمان ورقيب قيادة السريّة. في الأثناء جاءت المناقلات، ومُلئت الشواغر، وبدأ إعداد الكتيبة للانطلاق ثانية في اليوم التالي. فاليوم إذًا تقف صفوف السريّة «ك» استعدادًا للتفتيش بينما يتحرّك الكابتن (اسمه غراي) ببطء بين الجنود المنتظمين في صفوف.

---

(١) Douglas Haig (١٨٦١ – ١٩٢٨): قائد القوات البريطانيّة خلال الحرب العالميّة الأولى.

يمرّ من جندي إلى آخر، ممعناً النظر، يتبعه النقيب. يتريّث عند أحد الجنود ويقول له:

«أين عدّة الخندقة الخاصّة بك؟».

«طارت...»، يشرع الجندي بالكلام. ثم يصمت محدّقًا بصرامة أمامه.

يتولّى الكابتن إنهاء العبارة: «طارت عن ظهرك أليس كذلك؟ منذ متى؟ ما المعارك التي شاركت فيها منذ أربعة أيّام؟».

يحدّق الجندي بصرامة عبر الشارع الناعس. يستأنف الكابتن سيره. «سجّل اسمه أيّها النقيب».

يمضي إلى الكتيبة الثانية، ثم الثالثة. يقف مجدّدًا. ينظر إلى جندي من أعلى إلى أسفل.

«ما اسمك؟».

«١٠٨٠١ ماكلان سيّدي».

«استبدال؟».

«استبدال سيّدي».

يمضي الكابتن، «خذ اسمه أيّها النقيب. بندقيّته متّسخة».

تميل الشمس نحو الغروب. فتبدو القرية ظلاًّ أسود، ويتلألأ النهر متماريًا. الجسر فوق النهر قنطرة معتمة يمضي عليه الجنود مثل أشكال اقتُطعت من ورقة سوداء.

يربض الجنود في قناة على جانب الطريق بينما يستطلع الكابتن والنقيب بحذر من حافّة الطريق. يسأل الكابتن النقيب هامسًا: «هل رصدت أماكنهم؟».

يردّ النقيب: «إنّهم ألمان يا سيّدي، أرى خوذاتهم».

يعبر الجنود الجسر. يعود الكابتن والنقيب زحفًا إلى القناة، حيث تربض المجموعة، بينهم جندي مصاب عصب رأسه بضمّادة. يقول الكابتن: «أبق رجالك هادئين الآن».

يتقدّم الجنود على امتداد القناة حتى يبلغوا أطراف القرية. يقبعون بصمت تحت جدار، محيطين بالجندي المصاب، بينما يزحف الكابتن والنقيب مجدّدًا مبتعدين. يعودان بعد خمس دقائق «جهّزوا بنادقكم»، يقول النقيب بصوت خفيض. «اصمتوا الآن».

يهمس أحدهم: «هل أبقى مع الجندي المصاب حضرة النقيب؟».

يجيبه النقيب: «لا، سيجرّب حظّه معنا».

يتبعون الكابتن على امتداد الجدار الذي ينتهي بزاوية مستقيمة مع الطريق الذي يتقاطع مع الجسر. يرفع الكابتن يده، فيتوقّفون

عن السير ويشخصون نحوه وهو يستطلع من زاوية الجدار. إنّهم قبالة رأس الجسر المهجور، شأنه شأن الشارع. القرية تغفو بصمت في الشمس الغاربة. في السماء، بُعيد القرية، ترتفع أعمدة غبار يتحوّل لونها ذهبيًّا وزهريًّا.

ثم يسمعون صوتًا، كلمة مكتومة قصيرة. على مسافة لا تبعد عشر ياردات عنهم، خلف جدار متهدّم يرتفع إلى مستوى الصدر فقط قبالة الجسر، يتحلّق أربعة جنود حول مدفع رشّاش. يرفع الكابتن يده مجدّدًا. يتشبّثون ببنادقهم: حفحفة النعال على الحصى، صرخة ذهول حادّة، أنفاس قصيرة حادّة، شتائم، ولا طلقة رصاص واحدة.

يبدأ الرجل معصوب الرأس بالضحك بهستيريّة، حتى يخرسه أحدهم بيد طعمها كالنحاس. يقتحمون باب البيت تحت توجيهات الكابتن ويجرّون المدفع الرشّاش والجثث الأربع إلى الداخل. ينصبون الرشّاش في الطابق الأعلى وراء نافذة تشرف على رأس الجسر. الشمس تغوص أكثر، فتسقط الظلال طويلة ساكنة على القرية والنهر. الجندي الجريح يهذر بينه وبين نفسه.

يجتاز الشارع رتل آخر من الجنود، يعبرون الجسر ويتقدّمون في القرية. تفصل مجموعة نفسها عن مؤخّر الرتل وتنقسم إلى ثلاث فرق. اثنتان منها تحملان مدفعين رشّاشين تنصبهما على الجانبين المتقابلين من الشارع، وتتمترس الأقرب منهما وراء

المتراس الذي تمّ الاستيلاء فيه على المدفع الآخر. تعود الفرقة الثالثة إلى الجسر، حاملة عدّة تحصينات ومتفجّرات. الرقيب يرسل ستّة من التسعة عشر رجلاً، فيهبطون السلالم بحذر. يبقى الكابتن مع المدفع الرشّاش عند النافذة.

مجدّدًا أصوات جري قصير، اشتباك وقنابل. من النافذة يرى الكابتن رؤوس فريق المدفع الرشّاش عند ناصية الشارع المقابل، فيصوّب رشّاشه نحوه، ثم يحوّله صوب الفرقة التي على الجسر، ويشاهدها وهي تتشرذم مثل سرب من الطيور لكي تحتمي بأقرب جدار. يسلّط المدفع الرشّاش عليهم. يهرعون عبر الشارع الأبيض ثم يكفّون عن الحراك. ثم يوجه مدفعه مجدّدًا نحو المدفع الرشّاش في الشارع المقابل، فيتوقّف عن إطلاق الرصاص.

يصدر أمرًا آخر. فيهبط السلّم من تبقّى من جنود، ما عدا ذلك الجريح. ويبدأ نصفهم بجرّ المدفع الرشّاش بعيدًا. يقطعون نصف المسافة حين يلعلع المدفع الآخر. فيهرع الجنود مذعورين كشخص واحد. وترتفع تنانيرهم أثناء الركض مظهرة أفخاذهم البيضاء. يلعلع الرشّاش عند الباب حيث الآخرون يجرّون القتلى بعيدًا عن الرشّاش الأوّل. بينما يسلّط الكابتن رشّاشه مجدّدًا إلى الأسفل، ينفجر الغبار عند الجانب الأيسر من النافذة، يصلّ سلاحه مصدرًا صوتًا معدنيًّا، ويشعر بشيء ما يحترق على ذراعه وصدره، ثم ينفجر الغبار عند الجانب الأيمن من النافذة. يطلق الرصاص على

الرشّاش الثاني. فيتوقّف. يستمرّ بإطلاق الرصاص على المجموعة التي حول المدفع الرشّاش لفترة طويلة بعد توقّف الأخير عن إطلاق الرصاص.

الأرض القاتمة تقضم أهداب الشمس. يغرق الشارع كلّه في الظلام؛ يدخل شعاع أخير إلى الغرفة، ثم يخبو. وراءه في الغروب يضحك الجندي الجريح، ثم تتحوّل ضحكته إلى دمدمة صامتة راضية.

قبيل الظلمة تمامًا يعبر رتل آخر الجسر. ما زال هناك ما يكفي من الضوء ليبدو أنّ أولئك الجنود يلبسون الكاكي وأنّ خوذاتهم مسطّحة. لكن على الأرجح ليس ثمّة من يرى، فحين صعدت فرقة إلى الطابق الثاني ووجدوا الكابتن مرميًّا على النافذة إلى جانب الرشّاش البارد، حسبوه ميتًا.

هذه المرّة رأى ماثيو غراي التنويه. اقتطع أحدهم الخبر من «الغازيت» وأرسله له، وهو أرسله بدوره إلى ابنه في المستشفى، مع رسالة.

... بما أنّك مضطرّ للذهاب إلى الحرب فنحن سعداء بأنّك تبلي حسنًا فيها. أمّك تقول إنّك أدّيت دورك وإنّه عليك العودة إلى الديار. لكنّ النساء لا يفهمن مثل هذه الأمور. لكنّني شخصيًّا أظنّ أنّه آن الأوان لكي يتوقّفوا عن القتال. ما جدوى الأجور المرتفعة

حين يصبح الطعام باهظ الثمن فلا يستفيد منه إلاّ المحتكرون. حين تمضي الحرب إلى حيث لا تؤدّي حتى إلى ازدهار الناس الذين ينتصرون بها، يكون قد آن أوان التوقّف.

V

على السرير المجاور لسريره، ولاحقًا على الكرسيّ المجاور لكرسيّه على الشرفة الطويلة المزجّجة، كان ثمّة معاون. اعتادا التحادث معًا. أو بالأحرى كان المعاون يتكلّم بينما غراي يصغي. كان يتكلّم عن السلام، وعمّا سيفعله بعد انتهاء الحرب، كأنّما هذه قد انتهت حقًّا، كأنّها لن تتجاوز الكريسماس.

قال غراي: «سنعود إلى ميادين القتال بحلول الكريسماس».

«حالات اختناق بالغاز؟[1] إنّهم لا يعيدون إرسال مثل هذه الحالات إلى القتال. يجب أن يشفوا».

«سنشفى».

---

(١) شهدت الحرب العالميّة الأولى استعمال قنابل الغاز. بدأ بها الألمان وتبعتهم جيوش الحلفاء.

«لكن ليس في الوقت المناسب. ستكون الحرب قد انتهت بحلول الكريسماس. لا يمكن أن تستمرّ سنة أخرى. أنت لا تصدّقني أليس كذلك؟ أحيانًا أعتقد أنّك تحبّ العودة إلى القتال. لكنّه سينتهي. سينتهي بحلول الكريسماس، وعندها سأرحل. إلى كندا. لم يعد ثمّة ما نفعله في الديار». نظر إلى رفيقه، إلى وجهه الضامر المنهك وشعره الذي غزاه الشيب، مستلقيًا مغمض العينين تحت أشعّة الشمس الشتويّة. «يستحسن لك أن تأتي معي».

قال غراي: «نلتقي في جيفنشي في الكريسماس».

لكنّه لم يلتقه. كان في المستشفى يوم الحادي عشر من نوفمبر[1]، يستمع إلى قرع الأجراس، وكان ما يزال هناك في الكريسماس، حين تلقّى رسالة من أهله:

يمكنك العودة الآن. لن يكون الوقت مبكرًا الآن. سيحتاجون إلى سفن أكثر من أيّ وقت مضى الآن، الآن بما أنّ التبجّح والكبرياء قد استُنفدا.

حيّاه الضابط الطبيب بمرح. «تبًّا، إنّني عالق هنا بينما أعرف مكانًا في ديفون أستطيع فيه سماع شدو العنادل، بحقّ السماء». ربت صدر غراي، «ليس كثيرًا: فقط بعض الشدو. لن يضرّك أن تبقى بعيدًا عن الحروب الآن. ومع ذلك ربّما يوفّر عليك حالك هذا

---

(١) إعلان وقف إطلاق النار، نهاية الحرب العالميّة الأولى.

الذهاب إليها ثانية». انتظر أن يضحك غراي، لكنّه لم يفعل، «حسناً لقد انتهت الحرب الآن، اللّعنة عليهم. وقّع هنا رجاء». فوقّع غراي، «انسها بأسرع وقت ممكن، آمل ذلك. حسناً...». ومدّ يده وابتسم ابتسامته المعمّقة: «ابتهج أيّها الكاتبن. وحظًّا سعيدًا».

رأى ماثيو غراي، منحدرًا الهضبة عند السابعة صباحًا، الرجل، الرجل الطويل الأبيض بثيابه المدنيّة، يحمل عكّازًا، وتوقّف.

«أليك؟»، قال، «أليك». تصافحا. «لم أستطع. لم أفعل...». نظر إلى ابنه، إلى شعره الشائب، وشاربيه المشمّعين، «لديك وسامان من أجل العلبة، مثلما أخبرتنا في الرسائل». ثم عاد ماثيو صاعدًا الهضبة عند السابعة صباحًا «سنذهب إلى أمّك».

ثم تراجع أليك غراي للحظة. ربّما لم يتقدّم بالقدر الذي كان يظنّه، أو ربّما كان يرتقي هضبة، والعودة ليست تراجعًا بقدر ما هو شبه انهيار ثلجي ينتظر حصاة، «حوض السفن يا أبي».

وقف أبوه بحزم حاملاً سلّة الطعام، ثم قال: «سينتظر، سنذهب إلى أمّك».

لاقته أمّه عند الباب. وراءها ماثيو الصغير، الذي أصبح شابًّا، وجون ويسلي وإليزابيث التي يراها للمرّة الأولى، وقال ماثيو الصغير: «لم ترتدِ بزّتك العسكريّة للعودة إلى الديار».

أجابه: «لا، لا، لقد...».

قال أبوه: «كانت أمّك ترغب في رؤيتك بكامل البزّة وما شابه».

وقالت أمّه: «لا، إطلاقًا، إطلاقًا، إطلاقًا».

وقال أبوه: «اسكتي يا آني. وقد أصبحت برتبة كابتن الآن، مع وسامين للعلبة. هذا تواضع كذّاب. لقد أثبتّ شجاعتك، كان عليك أن... لكن هذا ليس الوقت المناسب. البزّة المناسبة لفرد من آل غراي هي بزّة العمل والمطرقة».

قال غراي: «أجل سيّدي». مع أنّه اكتشف منذ زمن طويل أنّه ليس من رجل يتمتّع بالشجاعة، لكن أيّ رجل قد يقع صدفة في البسالة مثلما يقع في حفرة على الطريق.

لم يخبر أباه تلك الليلة حتى خلدت أمّه والأطفال إلى النوم. «سأعود إلى إنجلترا. إنّني موعود بعمل هناك».

قال أبوه: «آه، في بريستول ربّما؟ إنّهم يبنون السفن هناك».

توهّج نور القنديل، فلامس شعاعه سطح العلبة الأسود المصقول على رفّ المدفأة. بدأت الرّيح تشتدّ، مجوّفة السماء مثل طاسة، وناحتة المنزل والهضبة والبرّ من مركزها المظلم.

قال أبوه: «ستهبّ عاصفة الليلة».

وقال أليك: «هناك أمور أخرى، لقد كوّنت علاقات كما ترى».

نزع أبوه النظّارتين المعدنيّتين، «كوّنت علاقات مع ضبّاط وما شابه، على ما أظنّ؟».

«أجل سيّدي».

«ومن الجيّد أن يحظى المرء بصداقات، أن يجلس ويتسامر وإيّاهم حول المدفأة ليلاً. لكن أبعد من ذلك، وحدهم أولئك الذين يحبّونك سيتحمّلون أخطاءك. يجب أن تحبّ امرأً كفاية لكي تجاري طرقه الملتوية يا أليك».

«لكنّهم ليسوا من هذا النوع من الأصدقاء سيّدي. إنّهم...». وصمت فجأة من دون أن ينظر إلى أبيه. جلس ماثيو، ماسحًا نظّارتيه بيده. سمعا عصف الرّيح. وقال أليك: «إذا ما أخفقت فسأعود إلى حوض السفن».

نظر إليه أبوه بجدِّيَّة، ملمّعًا نظّارتيه ببطء. «السفن لا تُصنع هكذا يا أليك. أن تخاف الربّ، أن تقوم بعملك كأنّك تبني سفينتك

أنت...»، وتحرّك، «سنرى ماذا يقول الكتاب». أعاد وضع النظّارتين على عينيه. على الطاولة كان ثمّة إنجيل كبير. فتحه. شعر أنّ الكلمات تنهض لكي تلاقيه من الصفحة. لكنّه سمعها تتردّد بصوت عال: «... وقادة آلاف الجنود، وقادة عشرات الآلاف...»[١]، فقرة تتكلّم عن الكبرياء. واجه ابنه، محنيًا رأسه لكي يرى عبر النظّارتين: «ستذهب إلى لندن إذن؟».

«أجل سيّدي».

VI

كان المنصب في انتظاره. منصب إداري. كان قد طبع البطاقات سلفًا: الكابتن آي غراي، أم سي، دي أس أم[٢]، وحين عاد إلى لندن انضمّ إلى نادي الضبّاط، متبرّعًا بدعم الأرامل والأيتام.

سكن منزلاً في حيٍّ راق كان يعود إليه من مكتبه سيرًا على الأقدام، مع البطاقات وشاربه المشمّع، وثيابه المهيبة الداكنة،

---

(١) ليس لهذا الاقتباس مصدر معروف في الإنجيل أو التوراة.

(٢) MC حائز على ميداليّة «فيكتوريا كروس» وDSM ميداليّة الخدمة المتميّزة Distinguished Service Medal.

وعكّازه الذي يحمله بطريقة فريدة، متباهية وغير ملحوظة في آن، متبرّعًا للجنود العميان والمعوّقين في ساحة بيكاديلي، سائلاً إيّاهم عن أسماء كتائبهم، مراسلاً أهله مرّة في الشهر:

أنا بخير. سلامي لجسي وماثيو وجون ويسلي وإليزابيث.

خلال السنة الأولى من إقامته في لندن تزوّجت جسي. أرسل لها كهديّة طقم أدوات مائدة، مقتصدًا بعض الشيء لهذا الغرض، ساحبًا من مدّخراته. كان يدّخر، لا لأجل شيخوخته؛ انطلاقًا من إيمانه الراسخ بأنّ الإمبراطوريّة ستتكفّل به وقتذاك، هو الذي استسلم كلّيًّا للإمبراطوريّة كامرأة، كعروس. كان يدّخر من أجل الوقت الذي سيعيد فيه عبور القناة الإنجليزيّة بين المشاهد الميتة لحياة ضاعت وعثر عليها ثانية.

كان هذا بعد ثلاث سنوات. بدأ يخطّط لطلب إجازة، حين بادره المدير ذات يوم بفتح الموضوع. ذهب بحقيبة واحدة إلى فرنسا. لكنّه لم يذهب شرقًا دفعة واحدة. ذهب إلى الريفييرا؛ وعاش لأسبوع حياة أرستقراطي، منفقًا ماله مثل أرستقراطي، وحيدًا، بمفرده في ذلك المنتجع الرائع الذي يضمّ نساء جميلات من كافّة أنحاء أوروبا.

لهذا السبب فإنّ أولئك الذين رأوه يترجّل من «المديترينيان إكسبرس» ذلك الصباح في باريس قالوا: «هذا ميلورد ثري»، ولهذا السبب استمرّوا في قول ذلك حين رأوه في مقصورات الدرجة الثالثة يجلس مستندًا إلى عكّازه، وشفتاه تتمتمان الأسماء على الصفائح المعدنيّة في المحطّات في الأرض المستيقظة المنهكة التي تبعد الآن ثلاث سنوات هادئة تحت كتائب الزمن البليدة الموصولة.

وصل إلى لندن واكتشف ما كان يجدر به أن يكتشفه قبل مغادرته. كان قد خسر منصبه. الظروف، قال له المدير، مخاطبًا إيّاه برتبته.

تبخّر كلّ ما بقي من مدّخراته ببطء: أنفق آخرها على ثوب حريري أسود لأمّه، مع رسالة:

أنا بخير. سلامي لماثيو وجون ويسلي وإليزابيث.

اتّصل برفاقه، بالضبّاط الذين كان يعرفهم. أحدهم، الأكثر قربًا منه، قدّم له الويسكي في غرفة مريحة مع مدفأة: «أنت الآن بلا عمل؟ يا للحظّ العفن. على فكرة أتذكر ويتبي؟ كان مع فرقة الـــ... شابّ لطيف، لكنّه عاش منعزلاً مع ذلك. أقدم على الانتحار الأسبوع الفائت، الظروف؟».

«أجل؟ أجل أتذكّره. يا للحظّ العفن».

«أجل. حظّ عفن. شابّ لطيف».

لم يعد يعطي قروشه للعميان والمعوّقين في بيكاديلي. أصبح بحاجة إليها لشراء الصحف:

بحاجة إلى حرفيّين

بنّائين

سائقين خصوصيّين. لا حاجة للسجلّ العسكري

حاجبو متاجر (تحت الحادية والعشرين)

بنّائي سفن

وأخيرًا:

جنتلمان ذي موقع اجتماعي مرموق وصلات للاهتمام بزبائن أجانب. موقّتًا.

حصل على العمل، وبشاربه المشذّب وثيابه المهيبة، اكتشف الأمكنة المترفة في حيّ «وست إند برمينغهام وليدز» الراقي. كان ذلك موقّتًا.

عاد إلى الصحف:

حرفيّون

حائكو سجّاد

دهّانو منازل

كان الشتاء موقّتًا أيضًا. في الربيع حمل شاربه المشمّع وثيابه المكويّة إلى «سوراي»، لكي يبيع مجموعة من الكتب، موسوعات. باع كل أشيائه ما عدا ثيابه وسلّم منزله في البلدة.

ما زال لديه عكّازه وشاربه المشمّع وبطاقاته. «سوراي» مدينة لطيفة خضراء معتدلة الجوّ. اتّجه إلى منزل صغير مع حديقة صغيرة. صادف عجوزًا يلبس سترة رماديّة ويسقي حوض ورود: «طاب نهارك يا سيّدي. هل لي أن...».

نظر إليه الرجل ذو السترة الرماديّة: «تنحّ بعيدًا، ألا يمكنك ذلك؟ لا تمرّ من هنا».

اتّخذ الطريق الجانبي. بوّابة ذات أعمدة خشبيّة بيضاء جديدة الطلاء، عليها صفيحة معدنيّة كُتِب عليها:

يمنع دخول الباعة الجوّالين والشحّاذين.

دخل وقرع بابًا صغيرًا تحت عريشة: «عمت نهارًا سيّدتي. هل يمكنني أن أقابل...».

«انصرف من هنا. ألم تر اللافتة على الباب».

«لكنّني...».

«ارحل من هنا، وإلاّ اتّصلت بالسيّد».

في الشتاء عاد إلى لندن. ربّما هو نفسه لا يعرف السبب. ربّما لا أحد يعرف السبب، ربّما الغريزة التي أعادته لكي يكون حاضرًا في اللّحظة التي سيتمظهر فيها موات حياته من جديد. على أيّ حال مشى هناك، بشاربه المشمّع، وعصاه تحت إبطه الأيسر، بين الفرق العسكريّة المحلِّيَّة في الدروع النحاسيّة، والحرّاس ببزّاتهم القرمزيّة، وحرّاس الكنيسة والمدافعين عن الربّ في ثياب مدنيّة متقشّفة، كلّهم تأهّبوا لثانيتين، مستمعين إلى اليأس. لا يزال معه ثلاثون شلنًا، وقد أعاد طبع البطاقات: الكابتن آيه. غراي، أم سي، دي أس أم.

إنّه واحد من تلك الأيّام الشاحبة العابرة التي تشبه طفلاً هزيلاً وُلد قبل أوانه، يوم ربيعي مع أنّ الربيع ما زال على بعد أسابيع. تحت شعاع الشمس الرفيع ترتفع المباني ضبابيّة مكسوّة باللون الذهبي الزهري. النسوة يلبسن المخمل فوق فرائهنّ، يبدين هنّ الأخريات يتفتّحن كالأزهار في الطقس المتقلّب الخامل.

إنّهنّ النسوة من ينظرن مرّتين إلى الرجل المستند إلى الجدار عند الناصية: رجل نحيل شائب الشعر، يلتفّ شاربه مدبّبًا، يضع وشاحًا عسكريًّا شحب وانسلّت خيطانه فوق ياقة سوداء، بزّة كانت ذات يوم مرموقة وقد اعتراها البِلى، ولكن من الواضح أنّها كُويت حديثًا، مستندًا إلى الجدار بعينين مغمضتين، وقبّعة مهلهلة تنسدل على وجهه.

وقف طويلاً هناك، حتى لمس أحدهم ذراعه. كان شرطيًّا: «امض من هنا يا سيّدي، هذا ضدّ الأوامر». في قبّعته كان ثمّة ثمانية بنسات ونصف البنس. اشترى لوح صابون وبعض الطعام.

جاءت ذكرى سنويّة أخرى وانقضت؛ وقف ثانية، عصاه تحت إبطه، بين البزّات العسكريّة الناصعة الصامتة، الحشد الصاخب في حرِّيَّة عنيدة أو صريحة، مع وجوه صبورة حائرة. في عينيه الآن ليس الاستسلام المتأمّل لشحّاذ، بل بالأحرى تلك المرارة، ذلك الصدى الشبيه بضحكة أحدب مريرة وغير مسموعة.

نار شحيحة تشتعل فوق منحدر الطريق. في الضوء الخافت يلوح جدار الجسر المعتم المكسوّ بالطحالب، والقنطرة الحجريّة التي تعلوه. أسفل المنحدر تبقبق المياه في النهر المعتم.

يقعي خمسة أشخاص حول النار، بعضهم يغطّي رأسه كأنّه نائم، وبعضهم الآخر يدخّن ويتكلّم. أحدهم يسند ظهره إلى الجدار، ملقيًا يديه جانبًا؛ إنّه أعمى: ينام هكذا. يقول إنّه خائف من أن يضطجع.

يقول أحدهم: «ألا يمكنك أن تعرف أنّك مضطجع ما لم ترَ ذلك؟».

يقول الأعمى: «قد يحدث شيء ما».

«ماذا؟ أتحسبهم سيمنحونك مأوى، ولو كان سيعيد لك بصرك؟».

وقال ثالث: «سيقدّمون له المأوى بكلّ تأكيد».

«لماذا لا يوقفوننا جميعًا إلى جدار ويرموننا بالرصاص؟».

ويسأل رابع: «أهكذا فقد بصره؟ برصاصة؟».

«أوه، لقد كان في مونز. يركب درّاجة ناريّة. احك لهم ذلك».

يرفع الرجل الأعمى رأسه قليلاً.. يتكلّم بصوت رتيب: «كان ثمّة ندبة صغيرة على معصمها. هكذا كنت أعرفها. يمكنكم القول إنّني أنا الذي تسبّبت لها بهذه الندبة. كنّا نعمل في المتجر ذات يوم. كنت قد أحضرت محرّكًا قديمًا وكنت أركبه على درّاجة ناريّة بحيث نستطيع أن...».

«ماذا؟»، قال الرابع، «عمَّ يتكلّم؟».

«صه»، قال الأوّل، «لا ترفع صوتك. إنّه يتكلّم عن حبيبته. كان لديه متجر درّاجات ناريّة على طريق بريتون وكانا سيتزوّجان». يتكلّم بصوت خفيض، صوته أقلّ بقليل من الصوت الرتيب المنهك الذي يتكلّم به الأعمى. «أخذوا صورة فوتوغرافيّة معًا وما إلى ذلك يوم التحاقه بالجيش وحصوله على البزّة. ظلّت معه لفترة قبل أن يضيّعها ذات يوم. كان شابًّا جامحًا. وأخيرًا عثرنا على بطاقة بحجم الصورة، وقلنا له: «هذه صورتك، تشبّث بها هذه المرّة، لذا ما زالت معه البطاقة. على الأغلب سيريها لك قبل انتهائه. لذا لا تفشي السرّ».

«لا»، يقول الآخر، «لن أفعل».

يتكلّم الرجل الأعمى «... جعلتهم في المستشفى يراسلونها وبالتأكيد جاءت. عرفتها من الندبة الصغيرة على معصمها. بدا صوتها مختلفًا، لكن وقتذاك بدا كل شيء مختلفًا. لكنّني عرفتها من الندبة. كنّا نجلس وكلّ منّا يمسك بيدي الآخر، وأتحسّس الندبة على ذراعها اليسرى. في السينما أيضًا. كنت أتحسّس الندبة وأشعر أنّها مثل الـــ...».

«السينما؟»، قال الرابع، «هو؟».

«أجل»، قال الآخرون، «كانت تصحبه إلى السينما، إلى الأفلام الهزليّة بحيث يستطيع سماع الضحك».

يتكلّم الرجل العجوز: «... قالت لي إنّ الأفلام تؤذي نظرها، وإنّها ستتركني، وحين ينتهي الفيلم ستأتي وتأخذني. فقلت لها لا بأس بذلك. والليلة التالية تكرّر الأمر. وقلت لا بأس بذلك. والليلة التالية قلت لها لا أريد الذهاب إلى السينما أيضًا. قلت لها إنّنا سنعرّج على البيت، أي المستشفى. وظلّت صامتة وقتًا طويلاً. كنت أسمع تنفّسها. ثم قالت لا بأس بذلك. بعد ذلك إذن ما عدنا نذهب إلى السينما. صرنا نجلس فحسب وأيدينا متشابكة، وأنا أتحسّس الندبة من وقت لآخر. لم يكن بوسعنا التكلّم بصوت عال في المستشفى، فكنّا نهمس. لكن معظم الوقت لم نكن نتكلّم. كانت أيدينا متماسكة. واستمرّ الأمر ثماني ليالٍ. لقد عددتها. ثم جاءت الليلة الثامنة. كنّا جالسين هناك، ويدها في يدي، وأنا أتحسّس الندبة من وقت لآخر. ثم فجأة ابتعدت اليد عن يدي. سمعتها تنهض. «اسمع»، قالت لي، «لا يمكن أن يستمرّ هذا أطول من ذلك. يجب أن تعرف الحقيقة في وقت ما»، قالت، وقلت لها «لا أريد أن أعرف سوى شيء واحد. ما اسمك؟ سألتها. أخبرتني باسمها؛ كانت إحدى الممرّضات. وقالت لي...».

«ماذا؟»، قال الرابع، «ما هذا؟».

«لقد أخبرك»، قال الأوّل، «كانت إحدى ممرّضات المستشفى. كانت الفتاة تواعد شابًّا آخر وطلبت من الممرّضة أن تسمح له بالإمساك بيدها، ظانّة أنّه خُدع بالأمر».

قال الرابع: «لكن كيف عرف؟».

وقال الأوّل: «اسمع».

«... وكنت تعرف طوال الوقت، قالت لي الفتاة، منذ البداية؟ إنّها الندبة، قلت لها، إنّها في المعصم الخطأ. ندبتك في اليد اليمنى». يستند العجوز إلى الجدار، رافعًا رأسه قليلاً، ويداه راقدتان بجانبه. «هكذا عرفت. من الندبة. ظنّتا أنّهما تستطيعان خداعي، في حين كنت أنا من تسبّب لها بالندبة، يمكنكم القول».

يرفع الشخص المستلقي الأبعد عن النار رأسه. «هاب»، يقول، «ها قد جاء».

يلتفت الآخرون نحو المدخل.

يسأل الأعمى: «من الذي جاء؟ أهو الضابط؟».

لا يجيبونه. ينظرون إلى الرجل وهو يدنو منهم: رجل طويل يحمل عكّازًا. يصمتون، ما عدا الرجل الأعمى، حين يصبح الرجل الطويل بينهم. يسأل الأعمى: «من الذي جاء يا أصحاب؟ أيّها الأصحاب!».

يمرّ الرجل الجديد بهم، وبالنار. لا ينظر إليهم. بل يمضي قدمًا. يقول الثاني: «انظروا الآن». يميل الأعمى قليلاً إلى الأمام، بينما تتحسّس يداه الأرض أمامه كأنّه يتأهّب للنهوض. يقول: «إلام ننظر؟ ما الذي ترونه؟».

لا يجيبون. يسترقون النظر باهتمام إلى الوافد الجديد، بينما يتجرّد من ثيابه، ويتحوّل في العتمة ظلاًّ أبيض أشبه بالشبح ينزل إلى الماء ويغتسل، فاركًا جسده بقوّة بيديه الوسختين المتجلّدتين. يعود إلى حيث النار؛ يغضّون أبصارهم عنه بسرعة، ما عدا الأعمى (ما زال مائلاً إلى الأمام، ويداه على الأرض أمامه كأنّه يهمّ بالوقوف، ووجهه الشاحب متحفّز نحو الصوت، نحو الحركة) ورجل آخر. «حجارتك حارّة يا سيّدي»، يقول هذا الآخر، «لقد وضعتها في النيران».

يقول الوافد الجديد: «شكرًا»، ويبدو أنّه ما زال غافلاً كلّيًّا عن وجودهم، فيراقبونه مجدّدًا، بصمت، بينما يفرد ملابسه الرثّة على حجر، ويحمل حجرًا ثانيًا من النار ويقوم بكيّها. بينما يرتدي ثيابه، ينزل الرجل الذي تكلّم إليه إلى الماء ويعود حاملاً لوح الصابون الذي استعمله. يرون الوافد الجديد يحفّ أصابعه بلوح الصابون ويلوي شاربيه حتى يصبحا مدبّبي الطرفين.

يقول الرجل الذي يحمل لوح الصابون: «قليلاً بعد إلى اليسار سيّدي». يحفّ الرجل أصابعه باللّوح ثانية ويلوي الشارب الأيسر

مجدّدًا، بينما الرجل الآخر ينظر إليه، محنيًا رأسه قليلاً إلى الوراء، فيبدو في شكله وثيابه وسلوكه أشبه بفزّاعة كاريكاتوريّة.

يسأله الوافد الجديد: «هكذا؟».

يجيب الفزّاعة: «هكذا يا سيّدي». ثم يتراجع إلى العتمة ويبرز ثانية من دون لوح الصابون، حاملاً القبّعة والعكّاز. يأخذهما منه الوافد الجديد. ويخرج من جيبه عملة معدنيّة يضعها في يد الفزّاعة. يضع الفزّاعة يده على طرف قبّعته؛ يرحل الوافد الجديد. يراقبونه، الهيئة الطويلة، الظهر المستقيم، العكّاز، حتى يختفي.

«ماذا ترون أيّها الأصحاب؟»، يسألهم الأعمى، «أخبروني ماذا ترون».

VII

بين الضبّاط الذين سُرّحوا من الخدمة وهاجروا من إنجلترا بعد وقف إطلاق النار، معاون يُدعى والكلي. هاجر إلى كندا، حيث اشتغل في زراعة القمح وازدهرت أحواله، على الصعيدين الصحّي والمالي. ولو رآه الناس في تلك الليلة خارجًا من «غار دي ليون» في باريس بدلاً من سيرك البيكاديلي (إنّها عشيّة الكريسماس)، في

أوّل زيارة له إلى دياره، لكانوا قالوا: «ليس هذا بميلورد ثري فحسب، بل إنّه رجل صالح أيضًا».

إنّه في لندن منذ ما يكفي من الوقت لشراء كمّيّة كبيرة من الملابس، وكان مغتبطًا بثيابه الجديدة (التي اشتراها من خيّاط ما كان ليتمكّن من تدبير أجره في ما مضى) إلى حدّ أنّه ما عاد في حاجة إلى الذهاب إلى أيّ مكان. واكتفى بالتنزّه في الشوارع، بين الحشود المبتهجة، حتى تسمّر فجأة في مكانه أمام أحد الوجوه. كان الرجل الذي أخذ يحملق به شائب الشعر تقريبًا، وله شاربان مدبّبان كالإبر، ويضع ربطة عنق بالية بالكاد يمكن التمييز من ألوانها أنّها عسكريّة. وقد كُويت ثيابه الرثّة حديثًا، وتدلّى عكّاز من إحدى يديه. كان يقف عند حافّة الرصيف، وبدا أنّه يخاطب السابلة قائلاً شيئًا ما، فدنا والكلي منه، مادًّا يده. لكنّ الرجل الآخر راح يحملق به بعينين ميّتتين كلّيًّا.

قال والكلي: «غراي، ألا تذكرني؟». ظلّ الرجل يحملق به بتلك النظرات الكثيفة الميتة: «كنّا في المستشفى معًا. أنا هاجرت إلى كندا. ألا تذكرني؟».

أجاب الرجل: «بلى أذكرك. أنت والكلي». ثم حاد بنظره عنه. وانتحى جانبًا، ملتفتًا مجدّدًا إلى الحشد، مادًّا يده، وعندها أدرك والكلي أنّه يحمل ثلاث أو أربع علب من أعواد الثقاب التي يمكن

شراؤها من محلّ تبغ بثمن فلس للواحدة. «أعواد ثقاب؟ أعواد ثقاب يا سيّدي؟»، قال، «أعواد ثقاب؟ أعواد ثقاب؟».

اقترب منه والكلي ووقف قبالته: «غراي..».

نظر الرجل إلى والكلي مجدّدًا، هذه المرّة بنوع من نفاد الصبر والحنق، وقال له: «دعني وشأني يا ابن السافلة». والتفت بسرعة إلى الحشد، مادًّا يده، مرنّمًا: «أعواد ثقاب! أعواد ثقاب يا سيّدي».

مضى والكلي في طريقه. وقف ثانية، استدار جزئيًّا، ونظر إلى الوجه الناحل فوق الشاربين المشذّبين. مجدّدًا نظر الرجل إلى وجهه نظرة كاملة، ثم أشاح عينيه، كأنّه رآه عفو الخاطر. مضى والكلي في طريقه، مسرعًا، قائلاً في نفسه: «يا إلهي. أظنّ أنّني سأتقيّأ».

الصدع[1]

يمضي الجنود قدمًا، متجنّبين حاجز القصف المدفعي الكثيف، هابطين في حفر حديثة وقديمة أحدثها القصف، ثم خارجين منها ثانية. اثنان منهم يجرجران واحدًا من رفاقهما، بينما يحمل آخران البنادق الثلاث. رِجْلا الجندي الجريح الذي عُصب رأسه بخرقة خضّبت بدمائه، تنسحبان شبه مشلولتين على الأرض، ورأسه يترنّح، بينما ينساب عرقه بطيئًا على وجهه المتّسخ.

يمتدّ حاجز القصف المدفعي بلا نهاية في الأرض الواسعة المبهمة. ومن وقت لآخر تهبّ ريح خفيفة من لا مكان، فتفرّق الدخان الرمادي فوق أجمات الحَوْر المقصوفة. تجتاز الفرقة حقلاً زُرع بالقمح قبل نحو شهر وظلّت براعمه متشبّثة بعناد في التربة بين قطع الحديد المتناثرة والخرق الرطبة.

تجتاز الفرقة الحقل وتصل إلى قناة تحدّها الأشجار التي ترتفع متساوقة على علوّ خمس أقدام. يرتمي الجنود في القناة يشربون من

---

(١) الصدع: كانت جزءًا من «انتصار» لكنّ فوكنر قرّر جعلها قصّة مستقلّة تمامًا، وهو أمر لا يوافقه عليه بعض نقّاده، إذ يرون أنّه في الوقت الذي حقّق فيه قصّة قويّة هي «الصدع» فقد أفقد «انتصار» قيمتها بحذفها منها. يعتبرها كثر أقرب إلى قصيدة النثر منها إلى القصّة القصيرة، وهذا يجعلها ثاني عمل لفوكنر بعد «كاركسون» يتمّ تصنيفه كقصيدة نثر.

المياه الفاسدة ثم يملأون جُعَبهم. يترك الجنديّان رفيقهم الجريح فيرتمي على ضفّة القناة مغطّسًا يديه ورأسه في الماء، حتى يقوم أحدهم برفعه، ويملأ له آخر خوذته بالماء، لكنّه لا يستطيع أن يشرب بمفرده. فيسنده أحدهما بينما يقرّب الثاني حافّة الخوذة من شفتيه، ثم يعاود ملء الخوذة ويسكبها على رأس الجريح، مبلّلاً الخرقة. ثم يسحب قطعة قماش وسخة من جيبه ويجفّف وجه الرجل بخرقة بالية.

يقف الكابتن والملازم والرقيب محملقين في خريطة متّسخة. عند نهاية القناة تبدأ الأرض بالارتفاع تدريجيًّا، ويكشف جانباها عن طبقات طبشوريّة من الأرض. يضع الكابتن الخريطة جانبًا ويأمر الرقيب الجنود بالوقوف، ليس بصوت عال. يرفع الجنديّان رفيقهما الجريح ويتبعان مع الآخرين ضفّة القناة، وصولاً إلى جسر قوامه قارب طُرح بالعرض بين الضفّتين. عندئذ يقفون مجدّدًا، بينما ينهمك الكابتن والملازم في قراءة الخريطة مجدّدًا.

تتناهى إلى مسامعهم رشقات النيران في تلك الظهيرة الربيعيّة القاتمة مثل وابل من البرَد على سقف معدني لانهائي. وفيما هم يمضون قدمًا راحت التربة الطبشوريّة تبرز تدريجيًّا تحت أقدامهم. الأرض جافّة صلبة ومع ذلك يشقّ السير على الجنديّين اللذين يجرّان رفيقهما الجريح. لكن حين يتوقّفان يكافح الجريح ويخلّص نفسه منهما ويمشي مترنّحًا بمفرده، واضعًا يديه على رأسه، لكنّه

يتعثّر ويهوي أرضًا. فيساعده الجنديّان على النهوض ويعاودان الإمساك به من ذراعيه وهو يتمتم: «... القبّعة...»[1]، ويحرّر يديه ليتحسّس مجدّدًا رأسه. ينتقل الاضطراب إلى الأمام. ينظر الكابتن إلى الخلف ويتوقّف عن السير، ومثله الجنود الذين يخفضون بنادقهم.

يقول أحد الجنديّين: «إنّه يتحسّس رأسه يا سيّدي». يساعدان الجريح على الجلوس، ينحني الكابتن بجانبه.

«... القبّعة... القبّعة»، يتمتم الجندي. يفكّ الكابتن الخرقة. يمدّ الرقيب جعبته ويبلّل الكابتن الخرقة ويجسّ جبين الجندي. يقف الجنود الآخرون بنوع من الفتور. ينهض الكابتن. يرفع الرجلان الجريح مجدّدًا. يأمرهما الرقيب بالتحرّك.

يصلان إلى قمّة السفح الذي ينحدر بعدئذ بعض الشيء غربًا نحو نجد منبسط بعض الشيء. إلى جهة الجنوب يستمرّ حاجز القصف المدفعي مدوّيًا، وترتفع أعمدة الدخان إلى جهة الغرب والشمال فوق الأشجار في السهل المجدب. لكنّه دخان حرائق، دخان أشجار تحترق، لا دخان قصف مدفعي. يحدّق الضابطان في

---

(١) القبّعة الفرنسيّة الخاصّة برجال الشرطة والتي اعتُمدت للجنود خلال الحرب العالميّة الثانية لأنّه يسهل طيّها ووضعها في جيب السترة واستبدالها بالخوذة حينما تدعو الحاجة إلى ذلك.

البعيد، ويتوقّف الجنود ثانية عن المسير من دون أن يتلقّوا الأمر بذلك ويخفضون بنادقهم.

يهتف الملازم فجأة: «يا الله يا سيّدي، إنّها بيوت تحترق! إنّهم ينسحبون! الوحوش! الوحوش!».

يقول الكابتن، واضعًا يده فوق عينيه، ناظرًا إلى المسافة أيضًا: «هذا وارد، يمكننا الذهاب باتّجاه ذلك الحاجز الآن. ينبغي أن نجد طريقًا هناك». ويستأنف سيره.

يقول الرقيب: «تقدّموا»، بذلك الصوت المعتدل. يرفع الجنود بنادقهم مجدّدًا بطاعة تامّة.

قمّة السفح مكسوّة بعشب قاس كالوزّال تتعب الحشرات فيه، مندفعة من تحت أقدامهم قبل أن تسقط في الظهيرة المتلألئة. الجريح يهذي ثانية. من وقت لآخر يتوقّفان ويناولانه الماء ويبلّلان ضمّادته مجدّدًا، ثم يتولّى جنديّان آخران المهمّة عنهما.

يقف الكابتن فجأة. ويتبعه رتل الجنود، مرتطمين بعضهم ببعض مثل عربات قطار شحن. عند قدمي الكابتن رقعة منخفضة من الأرض ينمو فيها عشب كثيف تبرز أنصاله من الأرض كالحراب. تبدو الرقعة أكبر من أن تكون قد أحدثتها قذيفة صغيرة، وأصغر من أن تكون قد أحدثتها قذيفة كبيرة. وليس فيها ما يدلّ

على سبب نشوئها. يتأمّلونها بصمت، ويقول الملازم: «غريب، ما الذي قد يكون أحدثها؟».

لا يجيب الكابتن. يستدير. يحيط الجنود بالرقعة المنخفضة، ويرمقونها بصمت فيما هم يتجاوزونها. لكن ما إن يتجاوزونها حتى يصلوا إلى واحدة أخرى، ربّما ليست بالحجم نفسه. يقول الملازم: «لم أكن أعرف أنّ لديهم سلاحًا قد يتسبّب بهذا». مجدّدًا لا يجيب الكابتن. يسيرون على حافّة هذه أيضًا. من جهة تنحدر قمّة السفح حادّة، طبقة إثر طبقة من الطبشور الجافّ المنحوت.

يعترض طريقهم وهد. يبدّل الكابتن اتّجاهه ويسير بموازاته، حتى بعدها بفترة قصيرة ينعطف الوهد في زاوية مستقيمة ويعترض طريقهم مجدّدًا. قاع الوهد معتم؛ يتقدّم الكابتن الطريق منحدرًا على مهل إلى الوهد. ويساعد الجنديّان رفيقهم الجريح على الهبوط ثم يمضون قدمًا.

بعد فترة يصبح الوهد مكشوفًا. فيجدون أنّهم قد دخلوا إلى رقعة أخرى من الأرض المنخسفة لكنّها غير واضحة الحدود تمامًا، وإن بدت متّصلة برقعة أخرى مشابهة، فتبدو الرقعتان أشبه بقرصين متداخلين. يجتاوزون الأولى بينما تخزُ أنصال العشب أقدامهم، ويعبرون إلى الرقعة التالية.

هذه الرقعة أشبه بواد محاط بتلال مصغّرة. فوق رؤوسهم يرون قبّة السماء الفارغة البليدة حيث يتلاشى بعيدًا بعض الدخان الباهت: تنبعث ذبذبة من الأرض يمكن الإحساس بها أكثر ممّا يمكن سماعها. لا آثار للقصف هنا أيضًا، كأنّهم دخلوا فجأة إلى منطقة معزولة، إلى عالم لم تبلغه الحرب، ولا أيّ أثر للحياة، وحتى الصمت نفسه ميت. يسقون الجريح ويمضون قدمًا.

يمتدّ الوادي، الأرض المنخسفة، مبهمًا أمامهم، في سلسلة من الأحواض الدائريّة المتداخلة التي تشكّلت بفعل عامل غير ظاهر أو مفهوم. نصال العشب تخزُ أقدامهم، وبعد حين يجدون أنفسهم مجدّدًا بين أشجار أخرى تتماثل للشفاء فعلقت بها أوراق كثيفة ليست بالخضراء ولا اليابسة، كأنّها هي الأخرى علقت في فجوة زمنيّة، فيُسمع حفيفها رغم أنّ الهواء ميت تمامًا. أرض الوادي ليست بالمستوية. بل تنحدر إلى منخسفات أرضيّة غامضة، ثم ترتفع مجدّدًا بالغموض عينه، وتبرز في وسطها كتل طبشوريّة صغيرة من طبقة التراب الرفيعة. الأرض ليّنة، والسير عليها أشبه بالسير على الفلّين؛ فلا تصدر الأقدام وقعًا وهي تدوس عليها. «يا لها من نزهة ممتعة»، يقول الملازم أوّل وإن بصوت خفيض، لكنّه يملأ الوادي الصغير بفجائيّة عاصفة تملأ الصمت، وتبدو الكلمات معلّقة حولهم كأنّ الصمت هنا لم يتمّ إقلاقه منذ زمن بعيد بحيث نسي هدفه؛ مثل شخص واحد راحوا يجيلون أنظارهم بصمت في سفوح

الأرض المنخسفة، وأشباح الأشجار العنيدة، والسماء الصامتة الوادعة. قال الملازم: «هذا كمين لصيد الطيور أو شيء من هذا القبيل».

«أجل»، قال الكابتن. وتعلّقت كلمته بدورها في الهواء ثم تبدّدت. اقترب الجنود الذين في الخلف، ومضوا جميعًا ككتلة واحدة ناظرين حولهم بصمت وترقّب.

قال الملازم: «لكن لا طيور هنا، ولا حشرات حتى».

قال الكابتن «أجل». تلاشت الكلمة، وحلّ الصمت مجدّدًا، عميقًا وغامرًا. يقف الملازم ويهزّ شيئًا ما بقدمه. يقف الجنود. ويقوم الملازم والكابتن، من دون أن يلمساها، بفحص ما يبدو بندقيّة نصف مدفونة ومحطّمة. الرجل الجريح يهذي ثانية.

يقول الملازم: «ما هذه يا سيّدي؟ تبدو مثل تلك البنادق التي يحملها الكنديّون. بندقيّة روس، أليس كذلك؟».

يقول الكابتن: «إنّها فرنسيّة، موديل ١٩١٤».

«أوه»، يقول الملازم. يقلب البندقيّة جانبًا بمشط قدمه. حربتها ما زالت ملتصقة بخزّان الرصاص، لكن زندها قد فسد منذ زمن بعيد. يمضون قدمًا على الأرض المتعرّجة، بين الكتل الطبشوريّة المنبثقة من التربة. الضوء، شعاع الشمس الواهن الدائخ، قليل في الوادي، راكد، بلا جسد أو حرارة. العشب المسنّن يرتفع بكثافة

عاليًا. ينظرون حولهم مجدّدًا إلى السفوح، ثم يرى الجنود في الطليعة الملازم يقف وينخس بعصاه إحدى الكتل الطبشوريّة قالبًا إلى الأعلى محجريها المعفّرين بالتراب ونظراتها الفارغة.

يصيح الكابتن: «تقدّموا». يتحرّك الجنود ناظرين بصمت وفضول إلى الجمجمة، ثم يشقّون طريقهم بين الكتل الأخرى البيضاء كالرخام، المنبثقة عشوائيًّا كالمسامير من التربة الضحلة.

يقول الملازم أول، مترنّمًا: «جميعها في الوضعيّة نفسها، ألاحظت يا سيّدي؟ كلّها منتصبة إلى الأعلى. طريقة غريبة لدفن الشبّان، جلوسًا. وفي هذه التربة الضحلة».

«أجل»، يقول الكابتن. يهذي الجريح ويهذر. يقف الجنديّان اللذان يحملانه. بينما يتجاوزهم رفاقهم ويحتشدون خلف الضبّاط. يقول أحدهما: «يريد أن يشرب»، فيجيبه الآخر «فليشرب وهو يمشي». ثم يحملان الرجل ويهرولان به بينما يحاول أحدهما أن يبقي الجعبة على فم الجريح، فترتطم بأسنانه وتدلق المياه على سترته. ينظر الكابتن إلى الخلف. ويصيح بحدّة: «ما هذا؟». يحتشد الرجال. عيونهم جاحظة، مترقّبة؛ يتفرّس في وجوههم المتأهّبة الصامتة، «ماذا يحدث هناك في الخلف أيّها النقيب؟».

يقول الملازم: «الأرض ترتجّ». ينظر حوله إلى الجدران المنحوتة، إلى الكتل البيضاء المنبثقة من التربة. «أشعرها بنفسي»،

يقول. ويضحك ضحكة رفيعة بعض الشيء، ثم يتوقّف عن الضحك. يقول: «لنخرج من هنا يا سيّدي، لنعد إلى الضوء ثانية».

يقول الكابتن: «أنت في الضوء هنا. اهدأوا قليلاً أيّها الرجال، كفّوا عن الاحتشاد هكذا. سنخرج قريبًا. سنجد الطريق ونعبر حاجز النيران ونتّصل بالقاعدة ثانية». يلتفت ويمضي قدمًا. تتحرّك الفرقة من جديد.

ثم يتوقّفون جميعًا عن السير كشخص واحد، ويتبادلون النظرات. مجدّدًا تهتزّ الأرض تحت أقدامهم. يصرخ رجل، صرخة عالية، أشبه بصرخة امرأة أو جواد؛ حين تهتزّ الأرض للمرّة الثالثة تحت أقدامهم يلتفت الضبّاط إلى الخلف ويرون تحت الجندي الغائص نصفه في الأرض حفرة ما زالت في طور التصدّع قبل أن تنهار الأرض تحت رجل ثان. ثم، بسرعة ضربة سيف، ينشقّ صدع آخر تحتهم جميعًا؛ تتكسّر الأرض تحت أقدامهم وتغوص مثل مربّعات مسنونة من حلوى «الفادج»، مشكّلة ثقبًا أسود، أشبه بانفجار صامت، تنبعث الرائحة التي لا يخطئها الأنف. رائحة الجيف. بينما يتبعثرون ويتقافزون (بصمت الآن؛ إذ لم يعد ثمّة صوت منذ صرخة الرجل الأولى) من فتحة إلى أخرى، والفتحات جميعًا تميل وتنحدر حتى تنهار الأرض كلّها تحت أقدامهم وتبتلعهم الظلمة. يرتفع صوت خشخشة عميق إلى شعاع الشمس في انفجار من التحلّل والتربة الباهتة التي تتعلّق قليلاً حول الفتحة السوداء.

يشعر الكابتن بنفسه يغوص في جدار من الأرض المتحرّكة، ومن صرخات الرعب والعتمة الخالصة. يصرخ شخص آخر. تتوقّف الصرخة؛ يُسمع صوت الجريح رفيعًا وحادًّا من أمعاء الصدع، «لست ميتًا! لست ميتًا!» ثم ينقطع صوته فجأة، كأنّ أحدهم وضع يده على فمه.

ثم يستمرّ الكابتن بالانحدار، قبل أن يجد نفسه مرميًّا على أرض صلبة، حيث يتمدّد لوهلة على ظهره بينما يطفو على وجهه عصف الموت والفناء. يجد نفسه متعلّقًا بشيء ينهار عليه بخفّة، مصدرًا صوتًا مكتومًا كأنّما تبعثر أشلاء.

رويدًا رويدًا يرى الضوء منبعثًا من تلك الفوهة المسنّنة في الأعلى، ثم يرى الرقيب مائلاً فوقه بمصباح يدوي صغير. يقول الكابتن: «ماكي؟» ولا يجيبه سوى ضوء المصباح على وجهه، يقول الكابتن: «أين السيّد ماكي؟».

«لقد قضى يا سيّدي»، يقول الرقيب بهمس حادّ.

يرفع الكابتن نفسه ويقتعد الأرض.

«كم بقي منهم؟».

«أربعة عشر يا سيّدي».

«أربعة عشر. هناك اثنا عشر مفقودًا إذن. يجب أن نحفر بسرعة». ينهض منتصبًا. الضوء الخافت من الأعلى يسقط باردًا

فوق الركام، فوق الثلاث عشرة خوذة وضمّادة الجريح البيضاء. «أين نحن؟».

كجواب، يحرّك الرقيب المصباح في العتمة على طول جدار، نفق يمتدّ في عتمة مفتوحة، تبرز على جوانبها كتل طبشوريّة. على امتداد النفق، قعودًا أو مستندة، تنتشر هياكل عظميّة بسترات عسكريّة داكنة وبناطيل فضفاضة، وقد ألقيت أذرعها المتحلّلة جانبًا؛ يتعرّف الكابتن عليهم بوصفهم جنودًا سنغاليّين من معارك مايو ١٩١٥، بوغتوا وقُتلوا بقنابل الغاز على الأرجح أثناء اختبائهم في الكهوف الطبشوريّة. يأخذ المصباح من الرقيب.

يقول: «سنرى إذا كان هناك سواهم. أخرج عدّة الحفر». يوجّه الضوء نحو الجدار المظلم ثم إلى ضوء النهار الباهت في الأعلى. يتسلّق كومة الركام المتحرّكة وهو يشعر أنّ الأرض ترتجّ تحته مندفعة إلى الأسفل، ويتبعه الرقيب، بينما يشرع الجريح بالنحيب ثانية «لست ميتًا! لست ميتًا!» حتى يتحوّل صوته إلى صراخ حادّ. أحدهم يضع يده على فمه، كاتمًا صوته الذي سرعان ما يتحوّل ضحكًا هستيريًّا، ثم ينقلب مجدّدًا إلى صراخ، قبل أن يُكتم مجدّدًا.

يتسلّق الكابتن والرقيب الركام إلى أعلى مسافة يجرؤان عليها، متشبّثين بالأرض التي تتحرّك تحتهما في تنهّدات طويلة مكتومة. عند حافّة الجرف يتجمّع الجنود في كتلة واحدة، رافعين وجوههم

البيضاء الشاحبة نحو الضوء. يمرّر الكابتن الشعلة نزولاً وطلوعًا على الجرف. ليس من شيء، لا ذراع، ولا يد على مدى النظر. يبدأ الهواء يصفو رويدًا. «سنمضي قدمًا»، يقول الكابتن.

«أجل سيّدي»، يقول الرقيب.

في الاتّجاهين تكتنف الكهف ظلمة عميقة كثيفة، مليئة بالهياكل العظميّة الخرساء القاعدة أو المسنودة على الجدران، وقد طُرحت أيديها جانبًا.

يقول الكابتن: «لقد قذفنا الانهيار إلى الأمام».

يهمس النقيب: «أجل سيّدي».

يقول الكابتن: «ارفع صوتك، ليس إلاّ كهفًا، إذا كان ثمّة من دخل إليه قبلنا فنستطيع نحن الخروج منه».

«أجل سيّدي».

«إذا كان الانهيار قذفنا إلى الأمام فيفترض أن يكون المدخل هناك».

«أجل سيّدي».

يمدّ الكابتن المصباح أمامه. ينهض الرجال ويحتشدون بصمت وراءه، وبينهم الجريح، ينشج باكيًا. ثم يمضي الكهف باتّجاه الضوء بينما تميل رؤوس الهياكل القاعدة بصمت نحو الضوء أثناء

مرورهم بهم. يصبح الهواء أثقل؛ سرعان ما يبدأون بالسير خببًا، وهم يتنفّسون بتثاقل، ثم يصير الهواء أخفّ ويكشف ضوء المصباح منحدرًا آخر من الأرض، يسدّ النفق. يكفّ الجنود عن السير، ويحتشدون في كتلة واحدة. يرتقي الكابتن المنحدر. يزحف ببطء على حافّته حتى يصل إلى سقف الكهف. يلتمع الضوء ثانية.

يقول: «فليتقدّم اثنان مع عدّة الحفر».

يتقدّم جنديّان نحوه. يريهما الفتحة التي يدخل منها الهواء في هبّات صغيرة ثابتة. يبدآن بالحفر، بشراسة، مهيلين التراب إلى الخلف. يبدأ آخران بمساعدتهما، ثم يصبح الشقّ نفقًا ويصبح في وسع أربعة جنود أن يحفروا معًا. يزداد تدفّق الهواء. يحفرون بشراسة، صارخين صرخات أشبه بالعويل. الرجل الجريح ربّما سمعهم، ربّما أصابته عدوى الحماسة، فيبدأ بالضحك مجدّدًا، هستيريًّا وبأعلى ما أوتي من صوت. ثم يندفع الجندي عند رأس النفق إلى الأمام. يتدفّق الضوء حوله كالمياه؛ يحفر بجنون، في الظلّ يرون مؤخّرته تختفي ثم يدخل ضوء النهار.

يترك الآخرون الجريح ويصعدون المنحدر، متصارعين عند الفتحة. يتبعهم الرقيب ويبعدهم عن الفتحة بمغول الحفر شاتمًا بهمسه الحادّ.

يقول الكابتن: «دعهم أيّها الرقيب». يتوقّف الرقيب. يتنحّى جانبًا ويراقب الرجال يمضون مبعثرين إلى خارج النفق. ثم ينزل هو والكابتن ويساعدان الجريح على صعود المنحدر. عند فتحة النفق يصرخ الجريح في سُعار:

«لست ميتًا! لست ميتًا». يدفعونه بالقوّة إلى الخارج وهو ما زال يعول..

يقول الكابتن: «فلتخرج أنت أيّها الرقيب».

يقول الرقيب: «من بعدك سيّدي».

«فلتخرج يا رجل»، يقول الكابتن. يدخل الرقيب النفق. يتبعه الكابتن. يخرج إلى المنحدر الخارجي من الركام الذي كان يسدّ الكهف، والذي يقعي الرجال الأربعة عشر في أسفله. زاحفًا على يديه ورجليه كحيوان، يتنفّس الكابتن في لهاث حادّ. «قريبًا سيحلّ الصيف»، يقول في نفسه، وهو يبتلع الهواء أسرع ممّا تحتمل رئتاه. «قريبًا سيحلّ الصيف والأيّام الطويلة». أسفل المنحدر يحتشد الرجال الأربعة عشر. ذلك الذي في وسطهم يحمل إنجيلاً ويرتّل بنبرة رتيبة، وقد طغى على صوته هذيان الجريح الواهن اللحوح.

مبادلة[1]

I

لم يكن الأميركي ــ وهو أكبرهم سناً ــ يرتدي بزّة «بدفورد» قرنفلية[2]. كان سرواله وسترته مصنوعين من نسيج القنّب. ولم تكن السترة بطويلة الذيل على نمط السترات العسكريّة الإنجليزيّة الراقية، فيبرز من تحت حزامه «سام براون»[3] مثلما يبرز ذيل سترة شرطي عسكري تحت قراب مسدّسه. وكان يرتدي لفافة ساق بسيطة وينتعل جزمة عادية كالتي ينتعلها رجل في الأربعين، بدلاً

---

(١) مبادلة: كُتبت عام ١٩٣١ ونُشرت في العام نفسه في «ذي سترداي إيفننغ بوست». أول قصّة لفوكنر تحولّت إلى فيلم سينمائي من بطولة غاري غرانت وجوان كروفورد بعنوان «اليوم نعيش» (١٩٣٣)، وقد شارك فوكنر في كتابة السيناريو له.

(٢) Bedfords: بزّة عسكريّة اعتمدها الجيش البريطاني لضبّاطه من قماش قطني سميك تصنع في بلدة بدفورد الإنجليزيّة.

(٣) Sam Browne: حزام عسكري عريض متّصل بلسان يمتدّ قطريًّا نحو الكتف. سُمّي على اسم الجندي البريطاني الذي اخترعه في خمسينيّات القرن التاسع عشر، بعد أن فقد ذراعه اليسرى لكي يسهل عليه حمل سيفه.

من جزمة «سافيل رو»[١]، ولم يكن لون الحذاء متناسبًا مع لون اللفافة، ولا كان لون الحزام متناسبًا مع أيّ منهما، أمّا شارة جناحي الطيّار على صدره فلم تكن بالمميّزة. لكنّ الشرائط التي تحتها كانت كذلك[٢]، كما ازدان كتفاه بالشارتين المعدنيّتين اللتين تشيران إلى رتبته ككابتن طيّار. أمّا من الناحية الشخصيّة فلم يكن بالطويل. وكان نحيل الوجه يشبه النسر بعض الشيء، تشعّ عيناه ذكاء وإن على شيء من الإجهاد. كان قد تجاوز الخامسة والعشرين، وإذ يراه المرء لا تتبادر إلى ذهنه بالضرورة أخويّة «فاي بيتا كابا»، بل ربّما جمعيّة «سكال أند بونز»، أو حتى «منحة رود»[٣].

أحد الشابّين الواقفين قبالته لم يكن يراه على الأرجح، فقد كان مترعًا حتى الثمالة بحيث اضطرّ شرطي عسكري أميركي إلى إسناده على رجليه الطويلتين النحيفتين. وعلى عكس هذا الشرطي

---

(١) Savile Row: شارع تجاري في وسط لندن، اشتهر بلقب «ميل الخيّاطة الذهبي» حيث تباع فيه أرقى الملبوسات.

(٢) شرائط أُلصقت بها ميداليّات البسالة.

(٣) «منحة رود» مذكورة سابقًا. فاي بيتا كابا Phi Beta kappa: أخويّة شرفيّة أكاديميّة تضمّ المتفوّقين والمتميّزين. تأسّست عام ١٧٧٦ في أميركا. أمّا سكال أند بونز أو الجمجمة والعظام Skull and Bones فجمعيّة نخبويّة أخرى نشأت في جامعة يال عام ١٨٣٢وتشتهر هذه الجمعيّة بسرّيّتها. إذا كان مقصد فوكنر هنا أنّ هذا الشابّ ينتمي إلى بيئة اجتماعيّة متواضعة وغير نخبويّة فإنّ ذكر «منحة رود» يتناقض مع أخويّة «سكال أند بونز» التي تعرف بنخبويّتها وانضمام الشخصيّات النافذة إليها.

الضخم، بدا ذلك الثمل أشبه بفتاة متنكّرة. ربّما كان في الثامنة عشرة، طويل القامة، أبيض الوجه، أزرق العينين، وله فم رقيق يشبه فم فتاة أيضًا. كان يرتدي معطفًا عسكريًّا أخضر اللون فاتحًا، زُرِّر بشكل خاطئ ولُطّخ بالوحول، وعلى شعره الأشقر، الذي لا يضاهى، تقبع قبّعة ضابط البحريّة الملكيّة.

بادر الكابتن الأميركي الشرطي العسكري قائلاً: «ما هذا أيّها المعاون؟ علام تتكبّد كلّ هذا العناء؟ إنّه إنجليزي، فمن الأفضل أن تدع الشرطة العسكريّة الإنجليزيّة تتولّى أمره».

فقال الشرطي: «أعرف أنّه كذلك». جاء كلامه لاهثًا متقطّعًا من شدّة الإنهاك. فعلى الرّغم من كلّ الرقّة الأنثويّة البادية عليه، كان الفتى الإنجليزي أثقل ـــ أو أكثر عجزًا ـــ ممّا يبدو عليه. قال الشرطي مخاطبًا الفتى: «قف على قدميك! أنت في حضرة ضبّاط!».

عندئذ بذل الفتى الإنجليزي بعض الجهد، محاولاً الوقوف بمفرده على قدميه وتركيز نظراته. لكنّه ترنّح، طارحًا ذراعه على رقبة الشرطي، وباليد الأخرى أدّى التحيّة للضابط، ويده ترتعش، وقد تكوّرت أصابعه بعض الشيء على صدغه الأيمن، من دون أن يكفّ عن الترنّح ومحاولة الوقوف بثبات في آن.

قال: «ابتهج يا سيّدي. آمل ألاّ يكون اسمك بتي».

أجابه الكابتن: «لا».

فقال الفتى: «آه، أملت بألاّ يكون كذلك. هذه غلطتي. لا إهانة ها؟».

فردّ الكابتن بهدوء «لا إهانة». لكنّه كان ينظر إلى الشرطي. عندئذ تكلّم الضابط الثاني وهو ملازم طيّار. لكنّه لم يكن في الخامسة والعشرين وكان يرتدي البزّة القرنفليّة، والجزمة الفاخرة، وربّما كان معطفه إنجليزيًّا أيضًا لولا الياقة. قال:

«إنّه أحد جنود البحريّة، تراهم يحملونهم من المزاريب هنا طوال الليل. أنت لا تتردّد كثيرًا على البلدة».

قال الكابتن: «أوه، لقد سمعت بهم. تذكّرت الآن». كما لاحظ عندئذ، أنّه برغم ازدحام الشارع ــ فقد كان خارج مقهى شعبي ــ وهناك الكثير من المارّة من جنود ومدنيّين ونساء، لكنّ أحدًا منهم لم يُطل الوقوف أمام هذا المهشد، وكأنّه مألوف بالنسبة إليهم. ثم نظر إلى الشرطي: «ألا تستطيع إعادته إلى سفينته؟».

قال الشرطي: «فكّرت في هذا، لكنّه يقول إنّه لا يستطيع الذهاب إلى سفينته بعد الظلام لأنّه يركن السفينة عند الغروب».

«يركن السفينة؟».

«أمسك نفسك أيّها البحار»، صرخ الشرطي وهو يحاول رفع حمله المتراخي. «ربّما بوسع الكابتن فهم قصده. تبًّا إن كنت فهمت

شيئًا. يقول إنّهم يركنون المركب تحت رصيف الميناء. يضعونه تحت الرصيف ليلاً، ولا يستطيعون إخراجه قبل ارتفاع المدّ في اليوم التالي».

قال، مخاطبًا الملازم: «تحت الرّصيف؟ مركب؟ ما هذا الكلام؟ هل يقودون نوعًا ما من الدرّاجات الناريّة البحريّة».

قال الملازم: «شيء من هذا القبيل، لقد رأيت هذه المراكب. إنّها زوارق مموّهة وما إلى ذلك. تندفع في الميناء ذهابًا وإيابًا. لقد رأيتها. يفعلون ذلك طوال النهار وينامون هنا في المزاريب طوال الليل».

قال الكابتن: «أوه، كنت أحسب أنّ هذه المراكب هي زوارق لقادة السفينة. أتقصد أنّهم يستعملون الضبّاط فقط لكي يوصـــ...».

قال الملازم: «لا أعرف، ربّما يستعملونهم لنقل المياه الحارّة أو الخبز من سفينة إلى أخرى. أو يرسلونهم على وجه السرعة لكي يحضروا لهم مناديلهم حين ينسونها وأشياء من هذا القبيل».

قال الكابتن: «هراء». وعاود النظر إلى الفتى الإنجليزي.

«هذا ما يفعلونه، البلدة تضجّ بهم طوال الليل. ثم تجدهم مرميّين بالعشرات على الأرصفة فتأتي شرطتهم العسكريّة وتحملهم بعيدًا، مثل الممرّضات في حديقة. ربّما أعطاهم الفرنسيّون الزوارق لكي يحملوهم عن الأرصفة خلال النهار».

قال الكابتن: «أوه، فهمت». لكن بدا واضحًا أنّه لم يفهم، لأنّه لم يكن يصغي، ولم يكن يصدّق ما يسمعه. نظر إلى الفتى الإنجليزي: «حسنًا لا يمكننا تركه هنا بهذا الشكل».

مجدّدًا حاول الفتى الإنجليزي أن يتماسك ويقف على رجليه. «لا بأس عليك، بكلّ تأكيد»، قال بصوت رقيق مرح وجذل تقريبًا وبالغ التهذيب. «اعتدت على ذلك، رغم أنّه بلاط قاس. يجب أن تفعل القوّات الفرنسيّة شيئًا ما حيال الأمر. يستحقّ الضيوف حقلاً مناسبًا للّعب، أليس كذلك؟».

قال الشرطي العسكري: «ولا بدّ من أنّه استعمل هذا الحقل جيّدًا، ربّما يحسب نفسه فريقًا من رجل واحد».

في هذه اللّحظة جاء رجل خامس. كان شرطيًّا عسكريًّا بريطانيًّا. «ليس الآن»، قال متأفّفًا، «ما هذا؟ ما هذا؟»، ثم رأى الشارة على كتفي الأميركيّين. فحيّاهما. التفت الفتى على وقع صوته، مترنّحًا، محملقًا.

قال: «أوه، هالو ألبرت».

أجاب الشرطي البريطاني: «آه إنّه مستر هوب». ثم خاطب الشرطي الأميركي: «ماذا فعل هذه المرّة؟».

قال الأميركي: «على الأغلب لا شيء، يا للطريقة التي تخوضون فيها الحرب يا شباب. لكنّني غريب هنا. هاك. خذه».

قال الكابتن: «ما هذا أيّها المعاون؟ ماذا كان يفعل؟».

«لن يعتبره بالشيء المهمّ»، قال الشرطي الأميركي، مشيرًا برأسه صوب الشرطي البريطاني: «ربّما يسمّيه عندليبًا أو أبا الحنّاء أو شيئًا من هذا القبيل. جئت ووجدت هذا الشارع مقفلاً على امتداد ثلاثة أحياء بخطّ من الشاحنات الخارجة من أحواض السفن، وجميع السائقين يزعقون. ما المشكلة بحقّ الجحيم. فمضيت في طريقي ووجدت أنّها تسدّ التقاطع أيضًا، فاتّجهت إلى حيث المشكلة، ووجدت نحو دزّينة من السائقين في المقدّمة، يجرون اجتماعًا أو شيئًا من هذا القبيل في وسط الشارع. تقدّمت منهم وسألتهم: «ما الذي يجري هنا؟»، وسمحوا لي بالمرور، ووجدت هذا المغفّل ممدّدًا هنا...».

قال الشرطي البريطاني محتجًّا: «إنّك تتكلّم عن أحد ضبّاط جلالة الملكة يا صاح».

فقال الكابتن: «انتبه لألفاظك أيّها المعاون، أكمل.. ووجدتَ هذا الضابط...».

«وجدته نائمًا وسط الشارع، متوسّدًا سلّة فارغة. ممدّدًا هناك ويداه تحت رأسه، شابكًا رجليه، مجادلاً السائقين في ما إذا كان سينهض ويتحرّك أم لا، قائلاً إنّ الشاحنات يمكنها أن تعود أدراجها

وتجد طريقًا آخر، لكنّه لا يستطيع استعمال أيّ طريق آخر، لأنّ هذا الطريق ملكه».

«ملكه؟».

كان الفتى الإنجليزي يصغي بجذل واهتمام، وقال: «عنبر عسكري، كما ترى، يجب أن يسود النظام حتى في طوارئ الحرب. عنبر بالقرعة. هذا الشارع لي. لست أتعدّى على أحد، أليس كذلك؟ الشارع التالي لجايمي وذرسبون. طلبت من الشاحنات أن تمرّ منه لأنّ جايمي لم يأوِ إلى النوم بعد. فهو مصاب بالأرق. فلتذهب الشاحنات من ذاك الطريق، أفهمتني؟».

قال الكابتن: «أهذا ما حدث أيّها المعاون؟».

«مثلما قال لك. لقد أبى النهوض. ظلّ ممدّدًا هناك فحسب، وهو يجادلهم. ثم طلب من أحدهم أن يذهب إلى مكان ما ويجلب معه نسخة من قانون الحرب عندهم...».

وقال الكابتن: «قانون الملك؛ أجل».

«... وليروا إذا كان الكتاب يبيّن من له الأحقيّة في المرور، هو أم الشاحنات. ثم قمت برفعه عن الأرض، ثم جئت أنت. وهذا كلّ شيء. ومن بعد إذن الكابتن سأسلّمه إلى ممرّضة جلالته الـــ...».

قال الكابتن: «هذا يكفي أيّها المعاون، يمكنك الذهاب. سأعالج هذه المسألة». حيّا الشرطي ومضى. وتولّى الشرطي الإنجليزي سند الفتى، وقال الكابتن: «أيمكنك أخذه؟ أين مقرّاتهم؟».

«لا أعرف يا سيّدي إذا كانت لهم مقرّات أم لا. نحن ــ أنا عادة أراهم في الحانات حتى الفجر. لا يبدو أنّهم يعودون إلى المهاجع».

«أتعني أنّهم حقًّا لا يعودون إلى سفنهم؟».

«حسنًا سيّدي، ربّما تكون هناك سفن، إذا شئت تسميتها كذلك، لكنّ الرجل ينبغي أن يكون أكثر نعاسًا منه لكي ينام في إحداها».

قال الكابتن: «فهمت. أيّ نوع من المراكب هي إذن؟».

هذه المرّة جاء صوت الشرطي مباشرًا وقاطعًا مثل باب مقفل: «لا أعرف يا سيّدي».

«أوه، حسن جدًّا، لكنّه ليس في وضع يسمح له بالبقاء في الحانات حتى الصباح هذه المرّة».

«ربّما يمكنني أن أعثر له على حانة فيها طاولة خلفيّة يمكنه أن ينام عليها»، قال الشرطي. لكنّ الكابتن لم يكن يصغي. كان ينظر إلى الرصيف المقابل، حيث أنوار مقهى آخر تسقط على الرصيف. تثاءب الفتى الإنجليزي بقوّة مثلما يفعل طفل، فبان داخل فمه الواسع الزهري تمامًا كطفل.

التفت الكابتن إلى الشرطي:

«أتمانع الذهاب إلى هناك والسؤال عن سائق النقيب بوغارد؟ سأتولّى أمر السيّد هوب».

رحل الشرطي، فأسند الكابتن الفتى، واضعًا يده تحت ذراعه. مجدّدًا تثاءب الفتى مثل طفل نعسان. «اثبت»، قال النقيب. «ستصل السيّارة بعد دقيقة».

«حسن»، قال الفتى الإنجليزي، متثائبًا.

II

ما إن أصبح داخل السيّارة حتى غفا فجأة بوداعة رضيع، جالسًا بين الأميركيّين. لكن، ورغم أنّ الميناء الجوّي كان يبعد ثلاثين دقيقة فقط، فقد وجدوه صاحيًا حين وصلوا، وبدا عليه الانتعاش التامّ، وراح يطالب بمزيد من الويسكي. حين دخلوا إلى المطعم كان قد صحا كلّيًّا، رامشًا قليلاً بسبب الإضاءة الساطعة في القاعة، بقبّعته المتهتّكة وسترته الكاكيّة المزرّرة بشكل خطأ، وقد التفّ حول عنقه وشاح حريري متّسخ ميّز عليه بوغارد شعار مدرسة تحضيريّة شهيرة.

«آه»، قال الفتى بحيويّة ووضوح، وبصوت مرتفع يغلب عليه المرح، بحيث التفت الآخرون في الغرفة ناظرين نحوه. «رائع. ويسكي. مضبوط؟». مضى مباشرة مثل كلب سلوقي إلى المشرب في الزاوية، يتبعه الملازم أول. أمّا بوغارد فاتّجه إلى الطرف المقابل من الغرفة، حيث خمسة رجال يلعبون الورق.

سأله أحدهم: «أميرال أيّ سلاح هو؟».

قال بوغارد: «في الحال التي وجدته عليها فإنّه أميرال البحريّة الأسكتلنديّة برمّتها».

رفع آخر رأسه ونظر مليًّا إلى الفتى، قائلاً: «أوه، عرفت أنّني رأيته في البلدة، ربّما لأنّه كان على قدميه لم أتعرّف عليه فورًا حين دخل. عادة تراه مرميًّا على الرصيف».

قال الأوّل، متلفّتًا حوله: «أوه، أهو واحد من أولئك الشبّان؟».

«بالتأكيد. لا بدّ من أن تكون قد رأيتهم مرميّين على الرصيف بينما يحاول رجال الشرطة العسكريّة الإنجليزيّة جرّهم».

قال الآخر: «أجل، لقد رأيتهم». ونظروا جميعًا إلى الفتى الإنجليزي الواقف عند البار، هاذرًا بصوت مرتفع مرح. «بدوا جميعًا مثله أيضًا في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة. إنّهم يعملون على متن تلك الزوارق التي تملأ الميناء».

قال الثالث: «أهذا ما يفعلونه؟ أتعني أنّ هناك فرقة احتياط عسكريّة للحمقى؟ يا إلهي، لقد أخطات بالتأكيد حين التحقت بالجيش. لكن لم يتمّ الترويج لهذه الحرب بطريقة صحيحة».

قال بوغارد: «لا أعرف، أحسب أنّهم يفعلون أكثر من مجرّد التسكّع على متن تلك الزوارق».

لكنّهم ما كانوا يصغون إليه، بقدر انشغالهم بالضيف. قال الأوّل: «إنّهم يعملون بالساعة، حين ترى حال الواحد منهم بعد الغروب يمكنك أن تعرف الساعة بالضبط. لكن ما لا أفهمه هو كيف أنّ رجلاً تكون هذه حاله عند الواحدة من بعد منتصف ليل كلّ يوم، يمكنه حتى أن يشهد قتالاً بحريًّا في اليوم التالي».

وقال آخر: «ربّما حين تكون هناك رسالة يريدون إيصالها إلى سفينة ما، يعدّون نسخًا مماثلة منها يوزّعونها على عدد من الزوارق ويرسلونها نحو السفينة، وتلك التي تخطئ في الوصول إلى السفينة تطوف في الميناء حتى تجد مرسًى في مكان ما».

قال بوغارد: «لا بدّ من أنّهم يفعلون ما هو أهمّ من ذلك».

وهَمّ بقول شيء آخر، لكن، في تلك اللّحظة، جاء الضيف من المشرب باتّجاههم، حاملاً كأسًا. مشى بثبات كافٍ، لكنّه كان متورّد الخدّين، متلألئ العينين، وبادرهم بالصوت المرتفع المرح نفسه: «أقول، لمَ لا تنضمّون أيّها الشباب...»، ثم توقّف. بدا أنّه لاحظ

شيئًا ما، ناظرًا إلى صدورهم: «أوه، فهمت. أنتم طيّارون. جميعكم. أوه يا إلهي. تجدون ذلك رائعًا أليس كذلك؟».

أجاب أحدهم: «أجل، إنّه رائع».

«لكنّه خطر، أليس كذلك؟».

فقال آخر: «أسرع بقليل من كرة المضرب»، فحانت من الضيف نحوه نظرة اهتمام بشوشة.

وقال آخر بسرعة: «يقول بوغارد إنّك قائد سفينة حربيّة».

«بالكاد سفينة. لكن شكرًا على أيّ حال. ولست قائدًا. روني يتولّى القيادة. إنّه يعلوني قليلاً في الرتبة. فارق السنّ».

«روني؟».

«أجل. رجل لطيف وجيّد. لكنّه كبير السنّ. وغشّاش كبير».

«غشّاش؟».

«مخيف. لن تصدّقوا ذلك. كلّما لمحنا دخانًا وكنت أحمل المنظار، يحيد بالزورق ويبقيه كذلك لفترة بحيث لا أرى السفينة. لا أحصل على «بيفر»[1] عندها. أمس سبقني بهدفين».

حدّق الأميركيّون بعضُهم ببعض، «لا بيفر؟».

---

(١) Beaver: لعبة بسيطة يلعبها الأولاد عادة يربح فيها نقطة من يلمح رجلاً ملتحيًا أوّلاً. في هذه القصّة يسجّل نقطة أوّل من يرى مقاتلة ألمانيّة.

«نحن نلعب هذه اللّعبة. مع صواري السفن المثلّثة[١]، أترون. حين ترى الصاري تحرز هدفًا! لكنّنا ما عدنا نحتسب الإرغنستراس».

تبادل الرّجال النظرات. تكلّم بوغارد: «فهمت. حين يرى أحدكما صاري سفينة يحقّق هدفًا على الآخر. فهمت. ما هي الإرغنستراس؟».

«إنّها سفينة ألمانيّة. سفينة بخاريّة. الصاري الأمامي فيها مزوّد بالأشرعة، فتبدو شبيهة بالسفن العاديّة. شخصيًّا لا أجدها تشبه السفن الشراعيّة لكنّ روني يعتقد ذلك. احتسبها مرّة. ثم ذات يوم نقلوها من مكانها. فرأيتها واحتسبتها هدفًا. فقرّرنا بعد ذلك ألاّ نحتسبها. أفهمت الآن؟».

«أوه»، قال الذي أبدى سابقًا التعليق حول كرة المضرب، «فهمت. أنت وروني تذهبان بالزورق، وتلعبان البيفر. إمممم. هذا جميل. هل تلعبان الـــ...».

«جيري!»، قال بوغارد. راح الضيف ينظر إلى جيري وهو ما زال يبتسم بعينين واسعتين.

قال جيري بالنبرة نفسها التي تخفي مسحة من السخرية: «هل مؤخّر مركبك، أنت روني، مطليّ باللّون الأصفر؟».

---

(١) Basket Mast: صاري السفينة الذي يأتي أعلاه على شكل حرف V.

«مؤخّر أصفر؟»، قال الفتى الإنجليزي. وقد كفّ عن الابتسام وإن احتفظ ببشاشة وجهه.

«كنت أحسب أنّه حين يكون هناك ضابطان على مركب ما يقومون بطلاء مؤخّره بالأصفر أو ما شابه».

«أوه»، قال الضيف، «بيرت وريفز ليسا ضابطين».

«بيرت وريفز»، قال الآخر متهلّلاً، «إذن هما يذهبان أيضًا. أيلعبان البيفر أيضًا؟».

«جيري!»، قال بوغارد. فنظر الآخر إليه. هزّ بوغارد رأسه قليلاً. «تعال إلى هنا». نهض الآخر. انتحيا جانبًا، «دعه وشأنه»، قال بوغارد، «أعني ما أقوله. ليس إلاّ ولدًا. حين كنت في مثل سنّه هل كنت تعي ما تقوله؟ لم تكن تملك من العقل ما يكفي للوصول إلى الكنيسة في الوقت المناسب».

قال جيري: «لكنّ بلدي لم يكن منخرطًا في هذه الحرب منذ أربع سنوات، وها نحن نهدر أموالنا ونتعرّض للقتل على مدار الساعة، وليست حربنا حتى، وأولئك البحّارة البريطانيّون الذين يتعاملون مع الحرب...».

«صه»، قال بوغارد، «تتكلّم مثل ليبرتي لون»[١].

(١) Liberty Loans: أو «سندات الحرّيّة» سندات خزينة أصدرتها وزارة الخزانة الأميركيّة عام ١٩١٧ بهدف جمع المال لدعم الحلفاء في الحرب.

«يتعاملون مع الحرب كأنّها مهرجان أو ما شابه...». ثم نغّم صوته محاكيًا صوت الفتى الإنجليزي: «رائع! لكن خطرة. أليس صحيحًا؟».

«صه»، قال بوغارد.

«أحبّ أن أراه هو وروني هذا في الميناء ولو مرّة. أيّ ميناء. في لندن. لا أحتاج إلى أكثر من طائرة جيني. لا بل سأكتفي بدرّاجة هوائيّة وطوّافتين! سأريه عندئذ بعض الحرب».

«حسنًا، الآن دعه وشأنه. سيرحل قريبًا».

«ما الذي ستفعله به؟».

«سآخذه معي هذا الصباح. ليأخذ مكان هاربر في المقدّمة. يقول إنّه يستطيع التعامل مع رشّاش لويس. يقول إنّ لديه واحدًا مثله على القارب. أخبرني أنّه أطلق الرصاص مرّة على منارة عن بعد سبعمائة ياردة».

«حسنًا، هذا شأنك. ربّما يستطيع أن يهزمك».

«يهزمني؟».

«بلعبة البيفر. ثم تستطيع أن تلاعب روني».

قال بوغارد: «سأريه بعض الحرب على أيّ حال». ونظر إلى الضيف. «جماعته منخرطون في الحرب منذ ثلاث سنوات، ويبدو

أنّه يتعامل معها مثل طالب جاء للمشاركة في اللّعبة الكبيرة». نظر ثانية إلى جيري، «أمّا الآن، فدعه وشأنه».

حين اقتربا من الطاولة، كان صوت الضيف مرتفعًا وبهيجًا: «... إذا كان المنظار معه أوّلاً يقترب من المقاتلة وينظر، أمّا إذا رأيتها أوّلاً، فيبتعد بالقارب بحيث لا أرى شيئًا سوى الدخان. غشّاش رهيب. لكن الإرغنستراس ما عادت تُحتسب. وإذا أخطأت واحتسبتها، تخسر هدفين من رصيدك. وإذا أخطأ روني واحتسبها هذه المرّة نصبح متعادلين».

III

عند الساعة الثانية كان الفتى الإنجليزي ما زال يهذر بصوته المرح البريء المنشرح. كان يخبرهم عن رحلته إلى سويسرا التي أُلغيت عام ١٩١٤، وأنّه بدلاً من الإجازة التي وعده بها والده لعيد ميلاده السادس عشر، كان عليه هو ومدرّسه الخصوصي أن يقبَلا بوايلز. ولكنّهما ذهبا إلى منطقة مرتفعة جدًّا هناك، ومع احترامهم لكلّ الحاضرين فهو يفضّل سويسرا. من ويلز تُتاح للمرء الرؤية بعيدًا بقدر ما يمكنه أن يرى من سويسرا. «تتعرّق بالقدر نفسه وتتنفّس بالصعوبة نفسها على أيّ حال». تحلّق الأميركيّون حوله،

متجهّمين قليلاً، صاحين قليلاً، مصغين إليه بنوع من الذهول الفاتر. ثم صاروا يخرجون تباعًا ويعودون مرتدين بزّات الطيران، حاملين الخوذات والنظّارات. دخل ضابط خدمة يوميّة حاملاً صينيّة عليها أكواب من القهوة، ولاحظ الضيف أنّه كان منذ بعض الوقت يسمع هدير محرّكات الطائرات في العتمة في الخارج.

أخيرًا نهض بوغارد وقال له: «تعال معي، سنحضر لك ملابسك». حين خرجا من المقصف كانت أصوات المحرّكات عالية كالرعد، وبالتوازي مع مدرج الطيران الخفيّ، كان ثمّة صفّ غامض من الأضواء الزرقاء والخضراء تلتمع في الجوّ. اجتازوا أرض المدرج إلى مقرّ بوغارد، حيث الملازم أوّل، ماك غينيز، يجلس على السرير منشغلاً بعقد رباط جزمته. تناول بوغارد بزّة «سيدكوت»[١] ورماها على السرير، قائلاً: «ارتدِ هذه».

قال الضيف: «هل سأحتاج إلى هذا كلّه؟ هل سنغيب طويلاً؟».

قال بوغارد: «على الأرجح، من الأفضل أن ترتديها، فالطقس بارد في الأعالي».

---

(١) Sidcott: بزّة طيران من قطعة واحدة.

أخذ الضيف البزّة، «أقول»، قال، «أقول، أنا وروني علينا الخروج يوم غد... أعني اليوم. أتظنّ أنّ روني لن يمانع لو تأخّرت قليلاً؟ ربّما لا ينتظرني».

قال ماك غينيز: «سنعود قبل وقت الشاي». بدا شديد الانشغال بانتعال جزمته. «أعدك». نظر الفتى الإنجليزي إليه.

سأله بوغارد: «متى يُفترض أن تعود؟».

أجابه: «أوه حسناً، أجرؤ على القول إنّه سيمضي الأمر على ما يُرام. هم يسمحون لروني أن يحدّد موعد الذهاب على أيّ حال، وسينتظرني في حال تأخّرت قليلاً».

قال بوغارد: «سينتظرك. والآن ارتدِ البزّة». ساعده وماك غينيز على ارتداء البزّة.

قال بجذل: «لم أصعد إلى فوق من قبل، أراهن أنّه يمكن الرؤية أبعد ممّا يرى المرء من الجبال، أليس كذلك؟».

قال ماك غينيز: «سترى أكثر على أيّ حال، ستحبّ الأمر».

«أوه، أرجو أن ينتظرني فحسب. لكنّها خطرة أليس كذلك؟».

قال ماك غينيز بنبرة تتّسم بالسخرية: «دعك من هذا الكلام، أنت تمازحني».

«اصمت يا ماك»، قال بوغارد، «هيّا بنا. أتريد المزيد من القهوة؟»، نظر إلى الضيف، لكن ماك غينيز أجاب:

«لا. لديّ ما هو أفضل من القهوة. القهوة تحدث بقعًا لا تزول عن الأجنحة».

«عن الأجنحة؟»، قال الإنجليزي، «لماذا قهوة على الأجنحة».

قال بوغارد: «كفّ عن هذا أقول لك يا ماك، هيّا بنا».

عاودوا عبور المدرج، واقتربوا من صفوف الضوء المتذبذبة. حين اقتربوا بدأ الضيف يميّز الشكل، الخطوط الخارجيّة لطائرة «هاندلي بايج». بدت أشبه بحافلة تميل إلى أعلى نحو هيكل الطابق الأوّل من ناطحة سحاب غير مكتملة البناء. نظر الضيف إليها بصمت. ثم قال بصوته الحماسي المرح:

«إنّها أكبر من سفينة، أراهن أنّها لا تطير قطعة واحدة. لقد رأيت مثلها من قبل. تأتي بقطعتين: الكابتن بوغارد وأنا في واحدة. ماك وشابّ آخر في القطعة الأخرى. صحّ؟».

كان بوغارد قد اختفى، فقال ماك غينيز: «لا، ترتفع كلّها دفعة واحدة. لعبة كبيرة هه. أشبه بصقر، صحّ؟».

تمتم الضيف: «صقر؟ أوه، أقول إنّها سفينة طائرة».

قال ماك غينيز، داسًّا قنّينة باردة في يد الفتى: «اسمع حين تشعر بالتوعّك خذ جرعة من هذه».

«وهل سأشعر بالتوعّك؟».

«بالتأكيد. جميعنا نتوعّك. هذا جزء من الطيران. هذا سيوقف التوعّك. لكن إذا لم تفعل. أفهمت؟».

«ماذا؟».

«إذا تقيّأت فلا تفعل ذلك جانبيًّا».

«ليس جانبيًّا؟».

«سيعود القيء على وجه بوغي ووجهي. أفهمت؟».

«آه تمامًا. ماذا أفعل بالقيء؟». كانا يتكلّمان همسًا كشخصين يتآمران.

«فقط أحنِ رأسك ودعه يخرج».

«فهمت».

عاد بوغارد، وقال: «هلاّ أريته كيف يجلس في الحجرة الأماميّة؟». وصعد ماك غينيز قبله إلى الطائرة، حيث يضيق الممرّ صعودًا إلى المقصورة فيضطرّ المرء إلى أن يمضي زحفًا.

«ازحف إلى هناك»، قال ماك غينيز.

قال الضيف: «يبدو المكان أشبه بجحر كلب».

وافقه ماك غينيز بمرح: «أليس كذلك؟»، «سأرافقك». منحنيًا سمع الضيف وهو يزحف قدمًا، وقال له: «ستجد رشّاش لويس هناك».

عاد إليه صوت الضيف: «وجدته».

«سيأتي ضابط التسليح بعد قليل ويريك ما إذا كان مذخّرًا».

«إنّه مذخّر»، قال الضيف، ولم يكد ينهي كلامه حتى لعلع الرصاص من الرشّاش في رشّة واحدة سريعة تبعها صراخ منبعث من الأسفل، من مقدّم الطائرة. وقال الفتى: «لا بأس، لقد وجّهته ناحية الغرب قبل أن أطلق الرصاص. لا شيء هناك سوى مركز البحريّة ومقرّكم أنتم. أنا وروني دائمًا نفعل ذلك قبل أن نذهب إلى أيّ مكان. آسف إذا قمت بذلك في وقت مبكر جدًّا. أوه على فكرة اسمي كلود. لا أظنّ أنّني ذكرته من قبل».

على الأرض وقف بوغارد وضابطان آخران. كانا قد جاءا راكضين، وقال أحدهما: «لقد أطلق الرصاص ناحية الغرب، كيف بحقّ الربّ يعرف اتّجاه الغرب؟».

قال الآخر: «أنسيت أنّه بحّار؟».

قال بوغارد: «يبدو أنّه ضابط مدفعيّة أيضًا».

قال الأوّل: «لنأمل ألاّ ينسى هو ذلك».

IV

أبقى بوغارد عينيه على ظلّ الرأس الذي يبرز من حجيرة المدفع على بعد عشر أقدام منه. وقال لماك غينيز الجالس بجواره: «بيد أنّه عرف كيف يشغّله، حتى أنّه ركّب أسطوانة الذخيرة بنفسه، أليس كذلك؟».

أجاب ماك غينيز: «أجل، فقط لو أنّه لا ينسى، فيحسب نفسه المدفع ومدرّسه الخاصّ يصوّبه من جبال الألب في ويلز».

قال بوغارد: «ربّما ما كان يجدر بي إحضاره معنا». لم يجب ماك غينيز. حرّك بوغارد المقود قليلاً. أمامهم، في حجيرة الرشّاش، كان الضيف يحرّك رأسه بلا توقّف، ناظرًا حوله. قال بوغارد: «سنصل إلى هناك، نفرّغ حمولتنا ونرجع، ربّما في العتمة... فكّر في الأمر، من المخزي لبلاده أن يكون منخرطًا في هذه الفوضى منذ أربع سنوات وألاّ يرى حتى سلاحًا مصوّبًا نحوه».

«سيرى واحدًا اللّيلة إذا لم يبق رأسه في الداخل»، قال ماك غينيز.

لكنّ الفتى لم يفعل ذلك. ولا حتى حين وصلوا إلى الهدف، وزحف ماك غينيز إلى مفصّلات إطلاق القذائف. وحتى حين رصدتهم الأضواء الكاشفة وأشار بوغارد إلى الطائرات الأخرى وانقضّ بطائرته، مطلقًا المحرّكين بأقصى سرعة عبر الرصاص، كان وجه الفتى يلمع على ضوء الكشّافات، مائلاً إلى الخارج، بارزًا بقوّة مثل ممثّل يحيطه كشّاف ضوء على خشبة مسرح، وعلى وجهه تعبير طفولي مفعم بالبهجة والحماسة. وفكّر بوغارد: «لكنّه يطلق الرصاص من هذا المدفع، ومباشرة نحو الهدف أيضًا»؛ وجّه الطائرة نزولاً أكثر، مشاهدًا عين الهدف تتذبذب أمام ناظريه، فرفع يده اليمنى في إشارة إلى ماك غينز. ثم أنزلها. وبدأ يسمع قرقعة القذائف وصفيرها أعلى من هدير الطائرة التي انطلقت بعدئذ صعودًا وقد تحرّرت من حملها، خارجة للحظة من ضوء الكشّافات. ثم انهمك بوغارد باجتناب مضادّات الطائرات، قبل أن تعاود الكشّافات رصده بما يكفي ليتبيّن الفتى الإنجليزي مائلاً أكثر جانبيًّا، ناظرًا إلى الخلف والأسفل تحت الجناح الأيمن، نحو عجلات الطائرة. «ربّما قرأ عن ذلك في مكان ما»، فكّر بوغارد، مستديرًا، ناظرًا إلى الخلف، لكي يرى بقيّة السرب.

ثم انتهى كلّ شيء، واستحالت العتمة باردة وفارغة ومسالمة وتكاد تكون ساكنة لولا هدير المحرّك الثابت. عاد ماك غينيز إلى مقعده، لكنّه ظلّ واقفًا وأطلق المسدّس الملوّن، ووقف للحظة أطول،

ناظرًا إلى الخلف حيث الكشّافات تسبر الفضاء وتجسّه. جلس ثانية. وقال: «حسنًا لقد رأيت طائراتنا الأربع. فلننطلق». ثم نظر أمامه. «ماذا حصل مع خادم الملك؟ لم تعلّقه بقنبلة ما أليس كذلك؟». نظر بوغارد. كانت الحجرة الأماميّة فارغة غارقة في العتمة مجدّدًا، على خلفيّة النجوم، لكن لم يكن من شيء هناك ما عدا الرشّاش. «لا»، قال ماك غينيز: ها هو. أتراه؟ يميل إلى الخارج. تبًّا قلت له ألاّ يتقيّأ! ها هو يعود». ظهر رأس الضيف مجدّدًا. لكنّه سرعان ما عاود الاختفاء.

قال بوغارد: «إنّه يعود، أوقفه. قل له إنّ جميع الطائرات الألمانيّة ستكون فوقنا في غضون نصف ساعة».

تأرجح ماك غينيز نزولاً عند مدخل الممرّ. «عد!»، صرخ. كان الفتى في الخارج تقريبًا؛ أقعيا وجهًا لوجه مثل كلبين، وهما يتبادلان الصراخ وسط صخب المحرّكات على جانبي الجدران النسيجيّة. كان الفتى يصيح: «قنبلة!».

أجاب ماك غينيز صارخًا أيضًا: «أجل. كانت قنابل! لقد فتحنا الجحيم عليهم! عد الآن أقول لك! عد إلى رشّاشك».

جاء صوت الفتى مجدّدًا، رفيعًا، باهتًا فوق الهدير: «هناك قنبلة! أليس كذلك؟».

«أجل! أجل!. عد إلى سلاحك الآن اللّعنة عليك».

عاد ماك غينيز إلى موقعه «لقد عاد. أتريدني أن أقود عنك لفترة؟».

قال بوغارد «حسنًا»، وتخلّى عن المقود لماك غينيز قائلاً: «خفّف سرعتها قليلاً. لن ينقضّوا علينا قبل الفجر».

«حسنًا»، قال ماك غينيز. ثم حرّك المقود فجأة، «ما قصّة هذا الجانح الأيمن؟»، قال. «انظر... أترى؟ إنّني أطير على الجنيح وبعض الدفّة. أشعر بهذا».

أمسك بوغارد المقود للحظة «لم ألاحظ ذلك. ثمّة عطل سلكي ما على ما أظنّ. لم أحسب أنّ أيًّا من تلك القذائف كان قريبًا. انتبه لها مع ذلك».

«حسن»، قال ماك غينيز، «وإذن سترافقه غدًا، أعني اليوم، في زورقه».

«أجل، لقد وعدته. لا يمكنك جرح شعور فتى كما تعرف».

«لمَ لا تأخذ كوليير معك مع الماندولين الخاصّ به؟ وعندها يمكنك الإبحار والغناء».

وقال بوغارد: «لقد وعدته، ارفع هذا الجناح قليلاً».

«حسنًا»، قال ماك غينيز.

بعد نصف ساعة بدأت السماء تصير رماديّة إيذانًا بالفجر. قال ماك غينيز «حسنًا، ها قد جاؤوا. انظر إليهم! يبدون مثل البعوض في أيلول. آمل ألاّ يتحمّس الآن ويحسب أنّه يلعب البيفر. إذا فعل فسيسبقه روني بنقطة، هذا إذا ما كانت للشيطان لحية... أتريد القيادة؟».

V

عند الساعة الثامنة كان الشاطئ، القناة، قد أصبح تحتهم. خفّف بوغارد السرعة، وهبط بالطائرة نحو منعرج القناة. كان وجهه مجهدًا، متعبًا بعض الشيء.

بدا ماك غينيز متعبًا وبحاجة إلى حلاقة.

«ما الذي ينظر إليه الآن؟ هكذا صاح عندما رأى الفتى يميل فوق الجانب الأيمن من الحجرة مجدّدًا، ناظرًا إلى الخلف والأسفل تحت الجانح الأيمن».

قال بوغارد: «لا أعرف، ربّما إلى ثقوب الرصاص»، أحدث صوتًا ثاقبًا بمحرّك الميسرة، «يجب أن نحصل على...».

قال ماك غينيز: «يمكنه أن يرى ذلك على مسافة أقرب من ذلك»، قال ماك غينيز، «أقسم إنّني رأيت كشّافًا ضوئيًّا على ظهره في إحدى اللّحظات. ربّما كان ينظر إلى المحيط. لكن لا بدّ من أنّه رآه حين جاء من إنجلترا». ثم هبط بوغارد بالطائرة، فارتفعت حدّة الصخب، الرمل، التيّار البحري المتلوّي جرى جانبيًّا مع الطائرة. بيد أنّ الصبيّ الإنجليزي ظلّ معلّقًا إلى الخارج، ناظرًا إلى الخلف والأسفل نحو شيء ما تحت الجانح الأيمن، وقد امتلأ وجهه بالحماسة الطفوليّة، وظلّ كذلك إلى ما بعد توقّف الطائرة كلّيًّا. ثم أحنى رأسه بسرعة إلى الداخل، وفي الصمت المفاجئ للطائرة سمعاه يزحف في الممرّ. ظهر بينما الطيّاران ينزلان برشاقة من قمرة القيادة، وجهه مشعّ، متشوّق، وصوته عال وحماسي.

«أوه أقول، أوه يا ربّي! يا له من شابّ. يا لحكمه الصائب على المسافة! لو رأى روني ذلك فحسب! أوه يا ربّي! أو ربّما قنابلكم ليست مثل قنابلنا ــ لا تنفجر تلقائيًّا حين ترتطم بالهواء».

نظر الأميركيّان إليه بحيرة. سأله ماك غينيز: «ماذا يفعل؟ ماذا؟»

قال الفتى: «القنبلة، لقد كانت رائعة؛ أقول، لن أنساها أبدًا. أوه أقول كما تعرف! كان ذلك رائعًا!».

بعد برهة قال ماك غينيز، مصعوقًا «القنبلة؟». ثم تبادل الطيّاران النظرات؛ وهتفا معًا: «الجانح الأيمن!». ثم هرعا يتبعهما الضيف حول الطائرة ونظرا تحت الجانح الأيمن فرأيا القنبلة، معلّقة من ذيلها بشكل مستقيم مثل جرس منتفخ تحت العجلة اليمنى وطرفها يلامس الرمل. وبالتوزاي مع أثر العجلات كان ثمّة خطّ طويل رفيع خطّه رأس القنبلة على الرمل. خلفهما جاء صوت الفتى الإنجليزي عاليًا، حماسيًّا، طفوليًّا:

«أنا نفسي خفت. حاولت أن أخبركما. لكنّني أدركت أنّكما تعرفان عملكما أكثر منّي. يا للبراعة. رائع. أوه، أقول، لن أنسى ذلك إطلاقًا».

VI

قاده جندي من البحريّة نحو رصيف الميناء ودلّه على الزورق. وجد الرصيف خاليًا من المراكب، ولم يرَ الزورق حتى اقترب من حافّة الرصيف ونظر مباشرة إلى الأسفل نحو المياه، حيث كان هناك رجلان منحنيان في بزّتين قطنيّتين متّسختين، نظرا إليه لبرهة ثم عاودا الانحناء.

كان الزورق بطول نحو ثلاثين قدمًا، وعرض ثلاث أقدام. وقد طُلي باللّون الحشيشي الفاتح بغرض التمويه، ووُجّه سطح مؤخّره إلى الأمام، فبرز عادما محرّكه الضخم، فقال بوغارد في نفسه: «يا إلهي، إذا كان هذا كلّه محرّكًا...». عند مؤخّر المركب كان مقعد القيادة حيث تنتصب دفّة كبيرة ولوحة أزرار. وكان ثمّة خيمة صلبة، مموّهة أيضًا، تمتدّ بارتفاع قدم من الكوثل حتى بداية سطح المركب، وتلتفّ من هناك جانبيًّا إلى الطرف الثاني من الكوثل، فتغطّي عمليًّا الزورق كلّه باستثناء عرض مؤخّره، وقبالة الدفّة حلقة أشبه بالعين بقطر ثمانية إنشات تقريبًا. كما رأى مدفعًا رشّاشًا ثُبّت على سطح الكوثل، وإذ تأمّل الخيمة الواطئة ــ علمًا أنّ المركب برمّته، ومعه الخيمة، لا يرتفع عن سطح الماء أكثر من ياردة واحدة ــ حدّث نفسه بصمت: «إنّها من الفولاذ. إنّها مصنوعة من الفولاذ». كان وجهه رصينًا تمامًا، وقورًا تمامًا. شدّ معطفه على جسده وزرّره كأنّه يشعر بالبرد.

سمع خطوات تقترب منه فاستدار، لكنّه كان مجرّد حاجب من الميناء الجوّي، يرافقه جندي من البحريّة يحمل بندقيّة. كان الحاجب يحمل صرّة كبيرة لُفّت بالورق. وقال له: «هذه من الملازم ماك غينيز إلى الكابتن».

أخذ بوغارد الصرّة، ومضى الجندي والحاجب. فتح الصرّة، فوجد في داخلها ملحوظة قصيرة كتبت بخطّ رديء وبعض

الأشياء: دثار كنبة حريريّة أصفر جديد ومظلّة يابانيّة، من الواضح أنّهما مستعاران، ومشط ولفّة من ورق التواليت. أمّا الملحوظة فكانت تقول:

لم أستطع العثور على كاميرا في أيّ مكان، وكولبير لم يسمح لي بأخذ آلة المندولين الخاصّة به. لكن ربّما يستطيع روني العزف على المشط.

ماك

تأمّل بوغارد الأغراض، بالرصانة نفسها، ثم أعاد لفّ الصرّة وحملها إلى نهاية الرصيف ورماها بهدوء في الماء.

في طريق عودته إلى الزورق رأى شخصين يدنوان. عرف الفتى فورًا ــ طويلاً، نحيلاً، مسترسلاً في الكلام، وقد أحنى رأسه قليلاً نحو مرافقه الأقصر منه الذي مشى متهاديًا بجانبه، واضعًا يديه في جيبيه، يدخّن الغليون. كان الفتى في سترته الكاكيّة ومعطف فضفاض واقٍ من المطر، لكن بدلاً من قبّعته اعتمر خوذة بلاكلافا من تلك التي يعتمرها جنود المشاة، جارًّا وراءه، كأنّها صدى صوته، قطعة قماش أشبه بالستارة بطول برنس تقريبًا.

صاح الفتى من بعيد: «مرحبًا يا صاح!».

لكن بوغارد كان منشغلاً بتأمّل رفيقه، محدّثًا نفسه أنّه لم ير في حياته رجلاً غريب الشكل أكثر منه. كان ثمّة شيء شديد البرودة في كتفيه المحنيّتين ووجهه المطرق بعض الشيء. كان رأسه يصل إلى كتفي الفتى. وكان وجهه ضاربًا للحمرة أيضًا. لكنّه يوحي برصانة عميقة تكاد تبلغ حدّ الوحشيّة. كانت ملامحه ملامح شابّ في العشرين يحاول منذ عام، حتى في أثناء نومه، أن يبدو في الحادية والعشرين. وكان يلبس كنزة من الصوف عالية القبّة وسروالاً قطنيًّا؛ وفوق ذلك سترة جلديّة؛ وفوقها واقٍ من المطر متّسخ يكاد يصل إلى قدميه، وكان ثمّة شريطة مفقودة عن إحدى كتفيه. ويعتمر قبّعة بحريّة مربّعة النقش، أحيطت بوشاح يغطّي أذنيه، ويلتفّ حول رقبته لينعقد تحت أذنه اليسرى. كان الوشاح قذرًا بشكل لا يصدّق، فإذا أُضيفت إلى ذلك يداه اللّتان دسّهما عميقًا في جيبيه وكتفاه المحنيّتان، لبدا أشبه بجدّة أحدهم وقد أُعدمت شنقًا بتهمة الشعوذة.

صاح الفتى: «ها هو! هذا روني. هذا الكابتن بوغارد».

قال بوغارد: «كيف حالك؟». ومدّ يده. لم يردّ الآخر، لكنّه مدّ ببطء يده الباردة الصلبة. ونظر لبرهة إلى بوغارد ثم أشاح نظره. وفي تلك اللحظة التقط بوغارد شيئًا ما في نظرته، شيئًا غريبًا — لمعة؛ نوع من الاحترام الفضولي الخفي، شيء أشبه بفتى في الخامسة عشرة يرى لاعب بهلوانيّات في السيرك.

لكنّه ظلّ صامتًا. أطرق برأسه وتابع سيره ثم اختفى فوق حافّة الرصيف كأنّه قفز في البحر. ثم انتبه بوغارد إلى هدير محرّك الزورق.

قال الفتى: «فلنصعد نحن أيضًا». واتّجه نحو القارب، ثم توقّف. لمس ذراع بوغارد وقال همسًا بصوت رفيع يكاد يختنق حماسة: «هناك، أترى؟».

أجابه بوغارد همسًا أيضًا: «ماذا؟»، ونظر بصورة عفويّة إلى الخلف وإلى الأعلى. شدّه الفتى من ذراعه وأشار إلى الطرف الآخر من الميناء، قائلاً: «هناك! هناك. الإرغنستراس. بدّلوا مكانها ثانية». مقابل الميناء رأى سفينة قديمة صدئة شبه غاطسة في المياه. كانت صغيرة وغريبة، وإذ تذكّر بوغارد وصف الفتى، رأى أنّ الصاري كناية عن فوضى غريبة من السلاسل الحديديّة والأسلاك، تشبه، ممّا يسمح بكثير من الخيال الفضفاض، الصاري المثلّث الشبيه بالسلّة. كادت تندّ عن الفتى ضحكة وهو يهمس: «أتظنّ أنّ روني لاحظها؟ أتظنّ ذلك؟».

قال بوغارد: «لا أعرف».

«أوه يا إلهي! إذا أخطأ واحتسبها قبل أن يتعرّف إليها فسنتعادل. يا إلهي! لكن هيّا تعال». صعد إلى القارب، وهو ما زال يحاول كتم ضحكته: «انتبه، سلّم رهيب».

صعد الفتى أوّلاً، فوقف الرجلان الآخران وأدّيا له التحيّة العسكريّة. أمّا روني فلم يبد منه إلاّ ظهره الذي بدا محشورًا في فتحة صغيرة أسفل سطح الزورق. صعد بوغارد بحماسة، قائلاً: «يا إلهي، أعليك أن تتسلّق هذا كلّ يوم؟».

«رهيب أليس كذلك، لكن كما تعرف نحن نخوض حربًا بالتحايل والتدبير، ثم نتعجّب لماذا تطول كثيرًا». غاص الزورق في المياه ثم عاود الارتفاع، رغم وزن بوغارد الإضافي. قال الفتى: «يظلّ مرتفعًا هكذا، حتى لو سار على العشب، أو في المطر الغزير، فإنّه ينطلق بكلّ خفّة كقصاصة ورق».

قال بوغارد: «أحقًّا؟».

«أوه بالتأكيد. وهذا هو السبب كما تعلم». ولم يعلم بوغارد شيئًا، لكن همّه كان منصبًّا أكثر على العثور على موضع للجلوس. لم يكن هناك مقاعد للتجذيف، ولا أيّ مقاعد أخرى، ما عدا أنبوب طويل أسطواني الشكل يمتدّ على طول القارب من مقعد الربّان حتى الكوثل. ظهر روني ثانية، واتّخذ مكانه وراء الدفّة، ومال على لوحة الأزرار. لكن حين التفت إلى الخلف لم يتكلّم، بل ارتسم تعبير فارغ على وجهه الذي بات ملطّخًا بلطخة كبيرة من الشحم. بات وجه الفتى فارغًا أيضًا. وقال، مخاطبًا أحد البحّارَين في مقدّم القارب: «أجاهز للانطلاق؟».

أجاب البحّار: «أجل سيّدي».

كان البحّار الآخر على الكوثل: «أجاهز؟».

«أجل سيّدي».

«انطلقوا». ومضى القارب، مصدرًا صوت بقبقة تحت الكوثل. نظر الفتى إلى بوغارد: «عمل سخيف. افعله على نحو منتظم مع ذلك. لا تعرف متى يأتي ضابط سخيف...». تغيّرت ملامح وجهه فورًا وعلاها شيء من انشغال البال. «اسمع، ألن تبرد بهذه الثياب؟ لم يخطر لي البتّة أن أحضر لك...».

قال بوغارد: «سأكون على ما يرام». لكنّه وجد الفتى يهمّ بخلع ممطره، فقال له: «لا، لا، لن آخذه».

«هل ستخبرني إذا ما شعرت بالبرد؟».

«بالتأكيد». راح يتأمّل الأنبوب الأسطواني الذي اتّخذه مقعدًا. كان في الحقيقة نصف أسطواني يشبه موقدًا ضخمًا شُطر بالنصف، ورتّج بالبراغي وقد امتدّ بطول عشرين قدمًا وبسماكة تزيد على القدمين، وبرز إلى حافّة الزورق، مضيّقًا المسافة عند جانبي الزورق بحيث لا تتّسع إلاّ لأن يضع رجل قدميه ويمشي فحسب.

قال الفتى: «أسمينا الزورق موريبل».

«موريبل؟».

«أجل. قبل هذا كان اسمه أغاثا. على اسم عمّتي. وأوّل زورق ركبناه أنا وروني أسميناه أليس في بلاد العجائب. وأنا وروني كنّا الأرنبين الأبيضين. جميل، أليس كذلك؟».

«أوه، أنت وروني تتقلّتما بين ثلاثة زوارق؟».

قال الفتى: «أوه أجل». ثم مال نحو بوغارد وهمس بصوت ملؤه الحماسة والغبطة: «لم يلاحظ، انتظر حتى نعود».

قال بوغارد: «أوه، إنّها الإرغنستراس». ونظر إلى الخلف، ثم فكّر «يا إلهي! لا بدّ من أنّنا نمضي بيسر...». ونظر إلى المياه ورأى الميناء يبتعد بسرعة، وفكّر أنّ القارب يسير بسرعة إقلاع طائرة «هاندلي بايج». بدأ الزورق يخبط صفحة الماء، قافزًا من رأس موجة إلى التالية، مرتطمًا بالماء بعنف. كانت يده ما زالت متشبّثة بالأنبوب شبه الأسطواني تحته. فراح يتأمّله ثانية متتبّعًا إيّاه من حيث يبدأ تحت مقعد روني، إلى حيث يختفي تحت الكوثل. وقال: «أحسب أنّه الهواء الذي فيه».

قال الفتى: «ماذا؟».

«الهواء المخزّن في الزورق. هذا ما يجعله يطوف عاليًا».

«أوه أجل. أجرؤ على القول. من المرجّح ذلك. لم أفكّر بهذا من قبل. وتقدّم وجلس بجانب بوغارد وبرنسه يلوح في الهواء. كان رأساهما تحت الخيمة.

وراءهما ظلّ الميناء يبتعد حتى اختفى ولم تعد تظهر سوى صفحة الماء. بدأ المركب يعلو، مندفعًا في قفزات طويلة إلى الأمام، هابطًا بقوّة، متجمّدًا للحظة، ثم مرتفعًا ومرتطمًا بعنف من جديد؛ فتندفع المياه إلى الزورق مثل رشّة كثيفة من الطلقات الناريّة. قال الفتى: «أرجو أن تأخذ هذا الممطر».

لم يجب بوغارد. التفت إلى وجه الفتى المتورّد، وسأله بهدوء: «بتنا في الخارج أليس كذلك؟».

«أجل... هلاّ أخذت الممطر؟».

«لا، شكرًا. سأكون بخير. أظنّ أنّنا لن نتأخّر كثيرًا على أيّ حال».

«لا، سننعطف عمّا قريب. لن يعود الأمر بهذا السوء عندئذ».

«أجل. سأكون بخير حين ننعطف». ثم انعطف الزورق فعلاً وصار يشقّ المياه بسلاسة أكبر. إذ لم يعد يمضي في مواجهة الأمواج العالية. أصبحوا الآن على مستوى أوطأ، وانطلق القارب بسرعة متزايدة، مائلاً من جانب إلى آخر. لكنّه انطلق سريعًا والتفت بوغارد إلى الفتى، وقد لاحت على وجهه تلك الرصانة نفسها التي رافقته منذ صعوده إلى الزورق، وقال: «إنّنا نمضي شرقًا الآن».

قال الفتى: «مع بعض الانحراف صوب الشمال، هذا يجعل الرحلة أسهل بكثير، أليس كذلك؟».

أجاب بوغارد: «أجل». في الخلف لم يكن من شيء سوى المدفع الرشّاش المائل بدقّة وخلفه أثر المياه المندفعة، والبحّارَين الجاثمين بهدوء على الكوثل. وتابع بوغارد: «أجل، إنّها أسهل، إلى أيّ حدّ سنمضي؟».

مال الصبيّ نحوه أكثر. جاء صوته مرحًا، تآمريًّا، فخورًا، وإن منخفضًا بعض الشيء، «إنّه استعراض روني. لقد فكّر في الأمر. ليس أنّني لم أكن لأفعل في نهاية المطاف، أي التعبير عن الامتنان وما شابه، لكنّه أكبر سنًّا منّي. يفكّر بسرعة بأمور مثل اللّياقة والنبل وما شابه. لقد فكّر في الأمر ما إن أخبرته به هذا الصباح. قلت له: أوه لقد كنت هناك ورأيت الأمر. وقال لي: لستَ تقصد الطيران. وقلت: قسمًا بلى. وقال: إلى أيّ مدى وصلت؟ بلا كذب الآن. وقلت: أوه، بعيدًا جدًّا. كان شيئًا عظيمًا، حلّقنا طوال الليل؛ وقال: حلّقتَ طوال الليل، لا بدّ من أنّك وصلت إلى برلين، وقلت لا أعرف. وراح يفكّر. وبدا واضحًا أنّه يفكّر. لأنّه أكبر سنًّا كما ترى، ولديه خبرة في أمور اللياقة. وصاح: برلين! لن يستمتع ذلك الشابّ بمرافقتنا إذن. وظلّ يفكّر وانتظرت، وقلت لكنّنا لا نستطيع أخذه إلى برلين. فهي بعيدة جدًّا ونحن لا نعرف الطريق،

ثم قال ــ قال بسرعة كالطلقة ــ لكن يمكننا الذهاب إلى كيل[١]، وعرفت...».

وصاح بوغارد قافزًا من مكانه، لكن من دون أن يبارح مكانه حتى: «ماذا؟ إلى كيل؟ بهذا؟».

«بالتأكيد. لقد فكّر روني في الأمر. إنّه ذكي، حتى إن كان غشّاشًا. قال إنّ زيبروغ ليست بعرض مهمّ لذلك الشابّ. علينا أن نقدّم أفضل ما لدينا من أجله. برلين! قال روني. يا إلهي! برلين!».

قال بوغارد، وقد التفت مواجهًا الفتى بجدِّيَّة كاملة: «اسمع، ما اختصاص هذا القارب؟».

«اختصاص؟».

«ما الذي يفعله؟». ثم أردف، وهو على دراية مسبقًا بالجواب عن سؤاله، متشبّثًا بالأنبوب الأسطواني: «ماذا يوجد هنا؟ طوربيد، أليس كذلك؟».

قال الفتى: «حسبت أنّك تعلم».

قال بوغارد: «لا، لم أكن أعلم». بدا صوته بعيدًا، جافًّا، أشبه بصوت صرّار: «كيف تطلقونه؟».

«نطلقه؟».

---

(١) Kiel: مدينة ومرفأ شمال ألمانيا.

«كيف تخرجونه من الزورق؟ حين كان ذلك الباب الصغير مفتوحًا قبل قليل رأيت محرّكًا يقع عند نهاية هذا الأنبوب».

قال الفتى: «أوه، ما تقوم به هو أنّك أنت تجذب أداة صغيرة هناك فينطلق الطوربيد إلى الوراء وما إن تلامس مروحته الماء حتى تبدأ بالدوران، وعندها يصبح الطوربيد جاهزًا. ثم كل ما عليك فعله أن تدير القارب بسرعة فينطلق الطوربيد قدمًا».

قال بوغارد: «تعني...». ولم يعرف ماذا يقول، قبل أن يطاوعه صوته ثانية: «تعني أنّك تصوّب الطوربيد والزورق معًا في اتّجاه ما، ثم تحرّر الطوربيد فيبدأ بالدوران، ثم تبعد الزورق من طريقه فيمرّ عبر المكان نفسه الذي كان يحتلّه الزورق؟».

قال الفتى: «عرفت أنّك ستفهم الفكرة، قلت ذلك لروني. طيّار مثلك لا بدّ سيستوعب الفكرة. مهمّة صعبة بعض الشيء، لكن لا يمكن فعل شيء حيال الأمر. هذا أفضل ما يمكننا فعله في المياه. عرفت أنّك ستستوعب الفكرة».

«اسمع»، قال بوغارد شاعرًا بالهدوء في صوته، وكأنّما يحدّث نفسه، بينما الزورق يقفز من موجة إلى أخرى. «هيّا اسأله. ماذا تسأله؟ اسأله كم ينبغي أن تكون قريبًا من الهدف قبل أن تطلق... اسمع قل لروني، أترى، فقط قل له ــ فقط قل...». خذله

صوته مجدّدًا، فصمت، وجلس ساكنًا، منتظرًا أن يعود صوته إليه؛ كان الفتى ما زال مائلاً نحوه. مجدّدًا جاء صوته قلقًا:

«أرى أنّك لست على ما يرام. هذه الزوارق المسطّحة المخزية».

قال بوغارد: «ليس هذا، إنّني فقط ــ هل تقضي أوامركم بالذهاب إلى كيل».

«أوه لا. إنّهم يتركون أمر القرار لروني. كلّ ما يطلبونه أن نعود بالزروق. إنّنا نفعل هذا من أجلك. امتنان، فكرة روني. بعد رحلة الطائرة. لكن إذا كنت تفضّل، إيه؟».

«أجل، وجهة أقرب. أترى أنّني مضطرّ...».

«أفهم تمامًا. لا إجازات في الحرب. سأخبر روني». مضى إلى المقدّمة. لم يتحرّك بوغارد. اندفع القارب في قفزات طويلة. نظر بوغارد إلى المياه المتدافعة خلفه، ثم رفع رأسه صوب السماء، محدّثًا نفسه: «يا إلهي، أيمكنك الاحتمال؟ أيمكنك الاحتمال؟».

عاد الفتى؛ التفت بوغارد إليه وقد اصطبغ وجهه بلون الورق المتّسخ. قال الفتى: «حسنًا لن نذهب إلى كيل، بل إلى مكان أقرب، وسنحقّق على الأرجح الهدف نفسه. قال روني إنّه عرف أنّك ستستوعب». راح يبحث في جيب معطفه. ثم أخرج قنّينة، وقال:

«هاك. لم أنس ليلة البارحة. سأفعل الشي نفسه من أجلك، جيّدة للمعدة أليس كذلك»؟

أخذ بوغارد جرعة كبيرة، وناول الفتى الزجاجة لكنّ الأخير رفض: «لا ألمس الشراب أثناء الواجب، الأمور عندنا مختلفة بعض الشيء».

مضى القارب. بدأت الشمس تميل نحو الغروب. لكن بوغارد كان قد فقد أيّ إحساس بالزمن وبالمسافة. أمامه رأى المياه البيضاء عبر الحلقة قبالة روني، ويد الأخير على الدفّة، وجانب وجهه الغرانيتي، والغليون المطفأ المائل إلى الأسفل.

ثم انحنى الفتى نحوه وربّت على كتفه. فنهض بصورة نصفيّة. ونظر إلى حيث يشير الفتى. كانت الشمس قد احمرّت، وقبالتها، على بعد نحو ميلين، رأى سفينة، أشبه بسفينة صيد ـ يتمايل صاريها الطويل.

«منارة عائمة»، صاح الفتى، «إنّها تخصّهم». أمامه رأى بوغارد حاجز أمواج غائصًا مسطّحًا ـ المدخل إلى ميناء، وصاح الفتى: «قناة». ولوّح بيده في الاتّجاهين. «إنّها لي». حملت الرّيح صوته في الاتّجاه المعاكس «المكان يغصّ بهم. من كلّ الجوانب وتحتنا أيضًا. رائع أليس كذلك؟».

VII

كان الموج يتكسّر على الحاجز. بدا أنّ الزورق يقفز من رأس موجة عملاقة إلى أخرى؛ وفي الفترات الفاصلة حين تكون المروحة في الهواء بدا كأنّ المحرّك يحاول اقتلاع نفسه من الجذور. لكن سرعته لم تخفّ، وحين اقترب من حاجز الأمواج بات منتصبًا مثل سمكة أبي شراع. بات الحاجز على بعد ميل، وعند نهايته تلألأت أضواء خافتة تشبه أسرجة اللّيل. مال الفتى، قائلاً: «أخفض رأسك، مدافع رشّاشة، قد تصيبك طلقة طائشة».

صاح بوغارد: «ماذا أفعل؟ كيف أستطيع المساعدة؟».

«أيّها الشجاع. أرهم الجحيم. عرفت أنّك ستحبّ هذا!».

جاثمًا، رفع بوغارد نظره صوب الفتى، وقال بحماسة: «أستطيع استعمال الرشّاش!».

صاح الفتى: «لا حاجة إلى ذلك، أعطهم الجولة الأولى. كما في الرياضة. نحن الفريق الزائر. إيه؟». راح ينظر أمامه. قال: «ها هي، أتراها؟». باتوا داخل الميناء الآن، وقد انفتح الحوض أمامهم حيث ترسو سفينة شحن ضخمة نُقش عليها علم الأرجنتين. صاح الفتى: «يجب أن أعود إلى موقعي!». ثم في اللحظة نفسها تكلّم روني للمرّة الأولى. بات الزورق يمضي الآن بسلاسة أكبر،

من دون أن يبطئ من سرعته. لم يلتفت روني وهو يتكلّم. فقط أمال فكّه البارز وشدّ أسنانه بإحكام على الغليون البارد، ولفظ بطرف فمه كلمة واحدة:

«بيفر».

الفتى، جاثمًا فوق ما كان قد أسماه أداة إطلاق الطوربيد، رفع وجهه فجأة بسخط وذهول. بوغارد أيضًا نظر إلى الأمام ورأى ذراع روني تشير إلى اليمين نحو طرّادة خفيفة تبعد ميلاً يرتفع فوقها الصاري المثلّث، وبينما هو ينظر إليها لعلع مدفعها الرشّاش في اتّجاههم، «أوه، تبًّا!»، صاح الفتى، «أوه، أيّها المحتال! أوه، لقد سبقتني بثلاث نقاط يا روني!»، لكنّه انحنى مجدّدًا فوق أداة الإطلاق ووجهه متورّد ومذهول ومتيقّظ من جديد. مجدّدًا نظر بوغارد قدمًا وأحسّ القارب يلتفّ ويتّجه مباشرة نحو سفينة الشحن بسرعة هائلة بينما روني يمسك الدفّة بيد ويرفع الأخرى إلى مستوى رأسه.

لكن بدا لبوغارد أنّ اليد لن تسقط البتّة. جثم أرضًا، مراقبًا بنوع من الرعب الصامت العلم المرسوم يقترب مثل سكّة الحديد. مجدّدًا لعلع المدفع الرشّاش من الطرّادة التي خلفهم، والسفينة أطلقت النيران عليهم مباشرة من كوثلها.

صاح بوغارد: «يا إلهي! يا إلهي! بحقّ الربّ».

هبطت يد روني. مجدّدًا التفّ الزورق. رأى بوغارد مقدّم السفينة يرتفع، وهي تدور على محورها؛ توقّع أن يرتطم الزورق عرضيًّا بها لكنّه حاد عنها قبل ملامستها. توقّع أن يندفع الزورق عندئذ إلى عرض البحر، بحيث تصبح السفينة خلفه، وفكّر في الطرّادة مجدّدًا «ضعه عرضيًّا هذه المرّة، ما إن نتجاوز سفينة الشحن»، فكّر. ثم تذكّر سفينة الشحن، الطوربيد، ونظر إلى الخلف نحو السفينة لكي يرى الطوربيد حين يصيبها، ورأى لرعبه الزورق يتّجه مجدّدًا نحو السفينة، في حركة التفافيّة. مثل شخص يحلم شاهد نفسه يمرّ بمحاذاة السفينة، وهو ما يزال يلتفّ، قريبًا جدًّا بحيث رأى وجوه من على سطحها. فكّر بسذاجة: «لقد أخطأوا التصويب وسوف يعيدون الطوربيد إلى مكانه لكي يطلقوه ثانية».

كان على الفتى أن يلمس كتفه قبل أن يعرف أنّه يقف خلفه. جاء صوت الأخير هادئًا: «تحت مقعد روني هناك ثمّة مقبض محراك، لو تناولني إيّاه فحسب...».

عثر على المقبض. وناوله إيّاه؛ وأخذ يفكّر، ساهيًا: «كان ماك ليقول إنّ لديهم هاتفًا على متن الزورق». لكنّه لم ينظر فورًا ليرى ما الذي يفعله الفتى به، ففي خضمّ رعبه الصامت راح يراقب روني، متشبّثًا بالغليون المنطفئ بين فكّيه، وهو يلتفّ بالزورق بأقصى سرعة حول سفينة الشحن، على مقربة شديدة منها بحيث رأى بوغارد البراغي المثبّتة على الصفائح المعدنيّة في السفينة. ثم

نظر إلى مؤخّر السفينة، وجهه جامح، متلهّف، ورأى ما الذي كان يفعله الفتى بالمقبض. كان قد أوصله برافعة صغيرة على أحد جوانب الأنبوب قرب الرأس. التفت فرأى بوغارد، وصاح بابتهاج: «لم ينطلق هذه المرّة!».

«ينطلق؟»، صاح بوغارد، «لم... الطوربيد...».

انغمس الفتى وأحد البحّارة فوق الرافعة والأنبوب. «لا. يا للخرق. يحدث دائمًا. ينبغي أن نفكّر بذكاء كالمهندسين... يحدث مع ذلك... أدخله وحاول مرّة أخرى».

«لكن رأس الطوربيد!»، صاح بوغارد «ما زال متّصلاً بالأنبوب أليس كذلك؟ كلّ شيء على ما يرام أليس كذلك؟».

«بالتأكيد. لكنّه بدأ يعمل الآن. بدأ اللولب يتحرّك. علينا أن نسقطه فورًا. إذا ما توقّفنا أو تباطأنا فسوف يجرّنا معه».

انتصب بوغارد واقفًا، متشبّثًا خشيةً من التفاف المركب. في الأعلى بدت السفينة تدور على نفسها مثل الصور المخادعة في الأفلام، «ناولني هذا المرفاع!»، صاح.

«اثبت»، قال الفتى، «لا ينبغي أن نجرّه إلى الخلف بسرعة أكثر من اللازم. علينا أن ندكّه في رأس الأنبوب بأنفسنا. بينغو! من الأفضل أن تدعنا نفعل ذلك. أعط خبزك للخبّاز، أليس كذلك».

قال بوغارد: «أجل بكلّ تأكيد، طبعًا». شعر أنّ شخصًا آخر هو من يحكي. انحنى، متشبّثًا، يده على الأنبوب البارد، بجانب الآخرين. شعر بالسخونة في أحشائه، أمّا من الخارج فشعر بالبرد وهو يراقب يد البحار الخشنة المتعرّقة تلفّ المرفاع في أقواس صغيرة بطول إنش واحد، بينما انحنى الفتى على رأس الأنبوب، وراح يطرق الأسطوانة بمفكّ براغٍ، بضربات خفيفة، مصيخًا السمع مثل صانع ساعات. استمرّ القارب بالالتفاف. رأى بوغارد خيط لعاب طويل يسقط على يديه، قبل أن يكتشف أنّ الخيط نزل من فمه هو.

لم يسمع الفتى وهو يتكلّم، ولا لاحظه حين وقف. فقط شعر أنّ القارب يمضي مستقيمًا، راميًا إيّاه على ركبتيه بجانب الأنبوب. كان البحّار قد عاد إلى الكوثل وانحنى الفتى مجدّدًا فوق أداة الإطلاق. جثا بوغارد، منهكًا تمامًا. لم يشعر بالزورق حين تأرجح ثانية، ولا سمع مدفع الطرّادة التي لم تكن تجرؤ على إطلاق الرصاص والسفينة التي لم تكن قادرة على إطلاق الرصاص، وهي تطلق الرصاص ثانية. لم يشعر بأيّ شيء على الإطلاق حين رأى العلم الضخم المرسوم أمامه مباشرة يتقدّم ويكبر بسرعة هائلة، ويد روني المرفوعة وهي تهوي. لكنّه أدرك عندئذ أنّ الطوربيد قد انطلق؛ بحركة دائريّة والتفافيّة هذه المرّة بدا أنّ الزورق كلّه يرتفع فوق المياه؛ رأى مقدّمه يتّجه نحو السماء مثل طائرة تستعدّ

للالتفاف دائريًّا. ثم خذلته معدته وبدأ يتقيّأ. لم ير الانفجار ولم يسمعه وهو يسقط فوق الأنبوب. فقط شعر بيد تمسكه من كمّ معطفه، وصوت أحد البحّارة يقول له: «اثبت يا سيّدي، إنّني أمسك بك».

VIII

أيقظه صوت، ويد. كان قاعدًا في الممرّ الضيّق إلى يمين الزروق، نصف ممدّد على الأنبوب الأسطواني. كان هناك منذ بعض الوقت، إذ شعر منذ مدّة بأنّ أحدهم يفرد دثارًا فوقه. لكنّه لم يرفع رأسه. قال: «إنّني بخير، احتفظ به».

قال الفتى: «لست بحاجة إليه، سنعود أدراجنا الآن».

قال بوغارد: «إنّني آسف.. لقد....».

«بالتأكيد. هذه الزوارق العجيبة المسطّحة تقلب معدة أيٍّ كان ما لم يكن معتادًا عليها. لن تصدّق ذلك. حصل هذا معي ومع روني في البداية. كلّ مرّة. لن تصدّق أنّ معدة الإنسان تستوعب كلّ هذه الكمِّيَّة. خذ». وناوله القنّينة، «شراب جيّد، خذ جرعة كبيرة منه. جيّد للمعدة».

أخذ بوغارد جرعة. وسرعان ما شعر فعلاً بالتحسّن وبالدفء. حين لمسته اليد لاحقًا، عرف أنّه كان نائمًا.

كان الفتى مجدّدًا. كان المعطف الكاكي صغيرًا جدًّا عليه؛ منكمشًا ربّما. تحت طرفي الكمّين، كان معصماه الطويلان الشبيهان بمعصمي فتاة قد ازرقّا من شدّة البرد. ثم أدرك بوغارد ما كانت قطعة القماش التي تغطّى بها. لكن قبل أن يتمكّن من التكلّم، مال الفتى نحوه، هامسًا ببهجة: «لم يلاحظ!».

«ماذا؟».

«الإرغنستراس! لم يلاحظ أنّهم بدّلوا مكانها. يا إلهي سيكون قد سبقني بنقطة واحدة فقط». حملق في وجه بوغارد بعينين مشعّتين متحمّستين. «بيفر، كما تعلم. أتشعر بالتحسّن؟».

«أجل، أشعر بالتحسّن».

«لم يلاحظ البتّة. أوه، يا إلهي!».

نهض بوغارد وقعد على الأنبوب. كان مدخل الميناء أمامهم مباشرة وقد أبطأ الزورق سرعته قليلاً. كان الغروب تمامًا. قال بهدوء: «هل يحدث هذا غالبًا؟»، نظر الفتى إليه. لمس بوغارد الأنبوب. «هذا. ألا يخرج الطوربيد».

«أوه، أجل. لهذا يضعون الرافعة عليه. لكن هذا جاء لاحقًا. في البداية صنعوا الزورق. فانفجر الطوربيد فيه. فأضافوا الرافعة».

«لكن هذا يحدث أحيانًا، حتى الآن؟ أعني أحيانًا تنفجر الطوربيدات حتى بوجود الرافعات؟».

«حسنًا لا يمكنني الجزم، بالتأكيد. الزوارق تخرج. بعضها لا يعود. ربّما. لم أسمع بهذا بالطبع. لم أسمع عن زورق وقع في الأسر، ومع ذلك هذا محتمل. لكنّه لم يحدث معنا، ليس بعد».

«أجل»، قال بوغارد، «أجل». دخلوا إلى الميناء الغارق بضوء الغروب الشاحب بالسرعة نفسها، لكن بسلاسة أكبر. مجدّدًا مال الفتى نحوه وهمس بحبور تامّ:

«ولا كلمة! اثبت الآن!». وقف. رفع صوته: «أقول يا روني»، لم يلتفت روني إليه، لكن عرف بوغارد أنّه يصغي. «تلك السفينة الأرجنتينيّة كانت مسلّية أليس كذلك؟ هناك. كيف تظنّ أنّها مرّت بنا هنا؟ ربّما تكون قد توقّفت هنا أيضًا. ربّما الفرنسيّون يشترون القمح». توقّف عن الكلام، شيطانيًّا، ماكيفليًّا بوجه ملاك ضالّ، «أقول. كم مرّ من الوقت منذ كان ثمّة سفينة غريبة هنا. مرّت أشهر أليس كذلك؟». مجدّدًا مال، وهمس «راقب الآن!». لكن بوغارد لم يستطع رؤية وجه روني يتحرّك على الإطلاق، «لكنّه

يستطلع مع ذلك!»، همس الفتى. وكان روني يستطلع، وإن لم يحرّك رأسه البتّة. ثم ظهر، قبالة السماء الغسقيّة في ظلّ، الصاري الأمامي الغامض، الشبيه بالسلّة، للسفينة الألمانيّة المعتقلة. فورًا ارتفع ذراع روني، مشيرًا؛ مجدّدًا تكلّم من دون أن يدير رأسه، من طرف فمه، عبر الغليون البارد بين أسنانه، كلمة واحدة:

«بيفر».

مثل رفّاص انطلق الفتى فورًا، مثل كلب تحرّر من عقاله، قافزًا من فوق بوغارد نحو روني: «أوه، اللّعنة عليك!»، صرخ، «أوه، أيّها اللّئيم! إنّها الإرغنستراس! أوه أيّها اللئيم. لقد صرت تسبقني بنقطة واحدة الآن، مضبوط؟». دنا الزورق ببطء من الرصيف، وقد صمت المحرّك. «أليس كذلك يا روني؟ نقطة واحدة الآن؟».

مضى الزورق؛ زحف البحّارة مجدّدًا إلى الأمام نحو سطحه. روني تكلّم للمرّة الثالثة والأخيرة. «مضبوط؟».

IX

قال بوغارد: «أريد صندوقًا من الويسكي. أفضل ما لدينا. ووضّبه جيّدًا. فسوف نأخذه إلى البلدة. وأريد رجلاً يتمتّع بحسّ

المسؤوليّة للقيام بتسليمه». جاء الرجل المسؤول. أشار بوغارد إلى الصندوق قائلاً: «هذا لطفل، ستجده في شارع تولف أورز، في مكان ما على مقربة من مقهى تولف أورز. سيكون على الرصيف، ستعرفه. طفل بطول ستّة أقدام تقريبًا. أيّ شرطي عسكري إنجليزي سيدلّك عليه. إذا وجدته نائمًا لا توقظه. فقط انتظره حتى يصحو. ثم أعطه هذا. قل له إنّه من الكابتن بوغارد».

X

بعد نحو شهر حملت صحيفة «الإنجليش غازيت» التي وصلت إلى القاعدة الجوِّيَّة الأميركيّة اللائحة التالية بالخسائر:

مفقود: قاذف توربيدات «أكس أو أو ١». ضابطا البحريّة آر. بويس سميث وأل سي دبليو هوب، والملاّحان مات بورت وآبل سيمان ريفز. أسطول القناة. قسم الطوربيدات. أخفق في العودة من دورة ساحليّة.

بعد فترة من ذلك نشرت قاعدة القوّات الجوِّيَّة الأميركيّة نشرة إخباريّة أيضًا:

بسبب البسالة الاستثنائيّة وخارج إطار الواجب، النقيب أتش أس بوغارد، مع فريقه المكوّن من الملازم ثانٍ داريل ماك غينيز

وضابط المدفعيّة واتس وهاربر، في غارة جوِّيَّة في وضح النهار وبلا أيّ غطاء، دمّروا بالقنابل مخزن ذخيرة على بعد أميال في عمق خطوط العدوّ. من هناك، محاطين بعشرات الطائرات المعادية، تقدّم هؤلاء الرجال بما تبقّى معهم من قنابل إلى مقرّ العدوّ في بلانك ودمّروه جزئيًّا، ثم عادوا سالمين بدون خسارة أيّ منهم.

وبخصوص هذه المأثرة، كان يمكن أن يضاف، في حال فشل الهجوم، وخرج النقيب بوغارد منه على قيد الحياة، لكان حوكم أمام محكمة عسكريّة على الفور.

حاملاً القنبلتين المتبقّيتين كان قد انقضّ بطائرته «هاندلي بايج»، على القصر حيث الجنرالات يتناولون الغداء، حتى صاح به ماك غينيز منتظرًا إشارته. لم يهوِ بيده قبل أن يميّز جيّدًا قرميد السقف الأردوازي. ثم هبط بها واقترب بالطائرة، وأبقاها هكذا، في هجومها الضاري وشفتاه منفرجتان، بينما يلهث، مفكّرًا: «يا إلهي! يا إلهي! لو أنّهم جميعًا هنا ــ جميع الجنرالات، والأدميرالات والرؤساء والملوك ــ الذين يخصّونهم والذين يخصّوننا معًا ــ جميعهم».

كلّ الطيّارين الموتى[١]

I

في الصور الفوتوغرافيّة، تلك الملتقطة على عجالة، التي بهتت بعض الشيء، وبليت حوافّها بفعل السنوات الثلاث عشرة، نرى في طلعاتهم شيئًا من الزهو. شبّان نحيلون، صلبون في ستراتهم الجلديّة والنحاسيّة، نراهم واقفين أو مائلين على طائراتهم النادرة المكوّنة من الأسلاك والخشب والقماش التي يحلّقون بها دونما مظلاّت[٢]، والذين يكتسون بدورهم مظهرًا نادرًا، لا ينتمي

---

(١) كلّ الطيّارين الموتى: رفضت نشرها ستّ مجلاّت أدبيّة ولم تظهر للمرّة الأولى إلاّ ضمن مجموعة «١٣ قصّة قصيرة» عام ١٩٣١. لا يصنّفها الناقد إدوارد فولبي ضمن قصص «الجيل الضائع» أي جيل الحرب العالميّة الأولى بل يعتبرها «حكاية رومانسيّة... التحيّة التي يوجّهها فوكنر إلى صنف خاصّ من البشر أولئك الذين اخترقوا الزمن في لحظة من التاريخ واختفوا».

(٢) إشارة إلى الطائرات الحربيّة البدائيّة خلال الحرب العالميّة الأولى، بداية عصر الطيران. وكان فوكنر يرى في الطيّارين جنسًا أو نوعًا خاصًّا وأسطوريًّا من البشر، انقرض بعد ذلك. وعلى أيّ حال كان فوكنر متابعًا حتى لأسماء الطيّارين الذين شاركوا في الحرب العالميّة الأولى، فيذكر، في محاوراته الجامعيّة، عام ١٩٥٧، أسماء الذين بقوا منهم على قيد =

كلِّيَّة إلى دنيا البشر، بل إلى عالم الآلهة الرهيب والقاتم، إلى ذلك العرق الذي لمحناه لبرهة في لمعان البرق ثم اختفى إلى الأبد.

لأنّهم موتى. كلّ الطيّارين القدامى، ماتوا في الحادي عشر من نوفمبر ١٩١٨[١]. حين تراهم في صور حديثة التُقطت بجانب الطائرات الحديثة المصنوعة من الفولاذ والقماش مع الأغطية المعدنيّة والمحرّكات الجديدة والأجنحة المثقّبة، يبدون غريبين بعض الشيء: أولئك الشبّان النحيلون الذين وقفوا مزهوّين ذات مرّة، يبدون ضائعين، حائرين. في عصر الطيران الساكسفوني هذا يبدون غرباء مثل بزّات العمل الرسميّة الرصينة في الثلاثينيّات وأواسطها، السميكة بعض الشيء عند الخاصرة وربّما أكثر من ذلك، يبدون مثل آلات الساكسفون والبرانيط النحاسيّة المصغّرة في فرقة نادٍ ليلي. لأنّهم ماتوا أيضًا. أولئك الذين تعلّموا في المقابل أنّ الاحترام الذي حصلوا عليه كان بسبب صلابتهم الشخصيّة قبل أن يكون ثمّة هياكل ملحومة الأبدان ومظلاّت هبوط وطائرات لا تسقط. لهذا السبب يشاهدون فتيات وفتيان الساكسفون الذين

الحياة، ومتى توفّوا وكيف، ليؤكّد على فكرة أنّهم ماتوا وإن ظلّوا أحياء بنهاية تلك الحرب.

(١) يوم إعلان وقف إطلاق النار، نهاية الحرب العالميّة الأولى. محطّة يعتبر فوكنر في هذه القصّة، كما في «انتصار» أنّها كانت نهاية أولئك الشبّان الذين شاركوا فيها.

يستعملون مطرّيات المراهم المضادّة للهواء وقناني الماء الخاصّة بالطيران، والذين يكوّمون الطائرات العتيقة الساكسفونيّة أمام مجازات البيوت الخاصّة وعلى ملاعب الجولف، ويتعاطفون معها سريعًا وبشيء من الذهول، إذ مثلما قال لي أحدهم، وهو طيّار صار شرطيًّا عسكريًّا: «إذا كان في وسعك معاملة طائرة قديمة بهذه الطريقة، فلماذا ترغب في الطيران أصلاً؟».

لكنّهم جميعًا في عداد الموتى الآن. باتوا رجالاً كثيفين، مكتنزين قليلاً عند الخاصرة من كثرة الجلوس وراء المكاتب، وربّما حاذقين في ذلك، ولديهم زوجات وأطفال في بيوت في الضواحي تمّ الانتهاء تقريبًا من تسديد أقساطها، مع حدائق يتسكّعون فيها في الأماسي الطويلة بعد الخامسة والربع، وربّما ليسوا حاذقين كثيرًا في ذلك أيضًا: الرجال الصلبون النحيلون الذين ترنّحوا بقسوة واحتسوا الخمرة بكثرة لأنّهم اكتشفوا أنّ كونهم موتى ليس بالأمر الرائع مثلما سمعوا أنّه سيكون. لهذا السبب هذه القصّة مركّبة: سلسلة من الومضات الموجزة، حيث فوريًّا، وبلا عمق أو منظور، يمثل في مرأى البصر نذير ووعيد ما احتمله ذلك العرق البشري وما أصبح عليه. في برهة واحدة بين العتمة والعتمة.

II

في العام ١٩١٨ كنت أتنقّل بين مقارّ سلاح الجوّ، محاولاً الاعتياد على رِجل اصطناعيّة رُكّبت لي أخيرًا، وشاغلاً، بين أمور أخرى، مهامّ مراقبة البريد الوارد والخارج من كافّة الوحدات. لم يكن العمل في حدّ ذاته سيّئًا، فقد وفّر لي الوقت للقيام باختبارات على كاميرا مراقبة كنت أعمل على تطويرها. لكن كان من المزعج فتح الرسائل وقراءتها، تلك الصفحات الموجزة، المكتوبة على عجالة، والمليئة بالأكاذيب الشفّافة والمشرّفة إلى الأمّهات والحبيبات، بتعابير الأولاد وخطّهم. لكنّ الحرب أمر كبير إلى هذا الحدّ، وتأخذ وقتًا طويلاً. وأحسب أنّ أولئك الذين يديرونها (لا أعني أركان الحرب بل أيًّا كان أو مهما كان الذي يسيطر على الأحداث) يضجرون من وقت لآخر. وحين تضجر تصبح ضيّق الأفق، وتنشغل بالتفاهات.

إذن كنت أذهب من وقت لآخر إلى مقرّ «سريّة كامل» الواقع خارج مدينة «آميان» وأتجاذب أطراف الحديث مع ضابط مدفعيّة حول موازنة المدافع الرشّاشة. كانت تلك الكتيبة تحت قيادة سبومر.

كان عمّه قائد الفيلق، وقد حصل على ميداليّة الملك جورج[١]. وهكذا فإنّ سبونر حين أصبح قائدًا للحرس، حصل بدوره على ميداليّة «مونز ستار» للجدارة العسكريّة، والآن بات قائد سرب طائرات صغيرة، مع أنّ البرنقيل الثالثة على سترته العسكريّة كان ما زال جناحًا مفردًا لمراقب جوّي.

في العام ١٩١٤ كان يدرس في ساندهيرست[٢]: شابّ ضخم، متورّد الخدّين، صغير العينين، وأحبّ أن أتخيّل عمّه يرسل في طلبه حين ذاع الخبر، ذلك الخبر الطيّب[٣]. فوافاه على الأرجح إلى النادي الذي يتردّد عليه العمّ (كان قائد لواء عندها، وقد استُدعي على عجل من الخدمة في الهند) وجلسا متقابلين على الطاولة الفاخرة، بينما باعة الصحف يهتفون بالعناوين المستجدّة في الشارع، والجنرال يقول: «بحقّ الربّ، جاء وقت الجيش. مرّر لي النبيذ يا سيّدي».

أستطيع أن أقول إنّ الجنرال شعر بالإحباط، لكي لا أقول بالغضب، حين أدرك أخيرًا أنّه، رغب في إدارة هذه الحرب على

---

(١) ترد في القصّة بالحرفين الأوّلين .K.G: ميداليّة أطلقها ملك بريطانيا جورج الخامس، عام ١٩١٦، وذلك لمكافأة العسكريّين الذين يقومون بأعمال بطوليّة خلال الحرب.

(٢) ساندهيرست: الأكاديميّة العسكريّة الملكيّة في مدينة ساندهيرست بإنجلترا.

(٣) إعلان دخول بريطانيا الحرب العالميّة الأولى.

النحو الذي يرغب به الجيش خلافًا للألمان ولإدارته السياسيّة. على أيّ حال كان سبومر قد ذهب إلى مونز وعاد بالنجمة (مع أنّ فولانزبي قال إنّ الجنرال أرسل سبومر إلى هناك لكي يأتي بالنجمة، لأنّه الوسام الوحيد الذي عليك أن تكون موجودًا حتى تحصل عليه) قبل أن ينقله عمّه إلى أركان الحرب عنده، حيث بوسع سبومر الحصول على تنويه بجدارته العسكريّة. ثم ربّما أرسله العمّ مجددًا لكي يزيد من خبرته. أو ربّما كان خيار سبومر نفسه هذه المرّة. أحبّ أن أتخيّل ذلك. أحبّ أن أتخيّل أنّه فعل ذلك حبًّا بالوطن، مع أنّني أعرف أنّه ما من شخص يستحقّ المديح بسبب شجاعته أو الخزي بسبب جبنه، إذ ثمّة ظروف قد يُظهر فيها أيّ شخص أيًّا من الصفتين. لكنّه ذهب، وعاد بعد سنة مع شارة «المراقب» الجوّي على سترته وكلب بحجم عجل تقريبًا.

كان ذلك في عام ١٩١٧، حين التقى، بل اصطدم، هو وسارتوريس(١) للمرّة الأولى. جاء سارتوريس من مزرعة في المسيسيبي تزرع الحبوب والزنوج، أو أنّ الزنوج يزرعون فيها الحبوب، أو ما شابه. كان كلّ قاموس سارتوريس هناك يتكوّن ربّما من مائتي كلمة، وبوسعي القول إنّ مكان وسبب وطبيعة عيشه كانت من الأمور التي تفوق فهمه، إذ لم يكن يعنيه سوى أنّه يعيش

---

(١) هو جون سارتوريس الثاني الذي يظهر في القصّة القصيرة «نحو النجوم» كما يظهر في رواية «المنزل» والقصّة القصيرة «كان هناك ملكة».

في المزرعة مع عمّته الكبرى وجدّه. جاء عبر كندا عام ١٩١٦، وعاش في منطقة «بول»[١] في لندن. وقد أخبرني فولانزبي عن الأمر. يبدو أنّ سارتوريس كانت له خليلة ما في لندن، واحدة من الفتيات اللواتي تزوّجن لثلاثة أيّام وترمّلن لثلاث سنوات. وهذا أسوأ ما في الحرب. هم، الجنود من أمثال سارتوريس ــ أو بعضهم، لم يقضوا نحبهم حتى العام ١٩١٨. أمّا الفتيات، النسوة، فقد متن في الرابع من أغسطس عام ١٩١٤.

إذن كانت لدى سارتوريس خليلة. قال فولانزبي إنّهم كانوا ينادونها كيتشنر[٢] «إذ كان لديها حشد ضخم من الجنود». وقال إنّهم ما كانوا يعرفون إذا كان سارتوريس يعرف بذلك أم لا، لكنّه قال أيضًا إنّه يبدو أنّه لفترة تخلّصت كيتشنر ــ كيت ــ منهم جميعًا من أجل سارتوريس. وباتا يُشاهَدان معًا في كلّ وقت ومكان، ثم أخبرني فولانزبي أنّه وجد سارتوريس ذات ليلة وحيدًا وقد تعتعه السكر في أحد المطاعم، وحين سأله عمّا ألمّ به أخبره أنّه سمع بأنّ كيت شوهدت ذاهبة برفقة سبومر إلى مكان ما قبل يومين. قال إنّ سارتوريس جلس هناك يشرب حتى الثمالة، بانتظار مجيء سبومر

---

(١) بول Pool: المنطقة الواقعة حول ميناء لندن.

(٢) كيتشنر Kitchener: نسبة إلى هوراشيو كيتشنر، وزير الحرب البريطاني خلال الحرب العالميّة الأولى.

إلى المطعم، لكنّه تمكّن أخيرًا من وضع سارتوريس في سيّارة أجرة أوصلته إلى القاعدة الجوِّيَّة. كان قرابة الفجر عندها، وأحضر سارتوريس سترة كابتن تخصّ أحدهم، ورباط جورب نسائي يخصّ إحداهنّ، ربّما يخصّه هو، ووضع رباط الجورب على السترة مثل شارة برنقيل. ثم ذهب وأيقظ عريفًا كان في السابق ملاكمًا محترفًا دأب سارتوريس على مصارعته من وقت لآخر، وجعل العريف يرتدي السترة فوق ثيابه التحتيّة. وخاطبه قائلاً: «نامش سبومر... الكابتن سبومر»، وهو يلوّح وينخز الشعار الزائف بإصبعه. «يا للفخذين المميّزتين»، قال سارتوريس. ثم هو والعريف الذي يرتدي السترة المستعارة، بثيابه التحتيّة الظاهرة، وقفا هناك في الفجر، يتبادلان التلويح بقضباتهما العارية.

III

قد تحسب أنّه حين تورّطك الحرب في الدخول إليها فإنّها تدعك وشأنك. إنّها لن تداعبك. لكن ربّما لا علاقة للحرب بالموضوع. ربّما كان السبب أنّ ثلاثتهم، سبومر وسارتوريس والكلب، كانوا بالغي الجدِّيَّة حيال الحرب. ربّما كان أيّ شخصٍ جدّيٍّ مثلهم يشكّل تحدّيًا مستمرًّا لهم أكثر من الحرب والإنذارات.

على أيّ حال، ذات عصريّة ــ كان الربيع، عشيّة سقوط كامبراي[1] ــ ذهبت إلى مقرّ «سريّة كامل» لكي أقابل سرجنت المدفعيّة، ورأيت سارتوريس للمرّة الأولى. كانوا قد سلّموا قيادة السرب لسبومر والكلب في العام السابق، وأوّل ما فعلوه هو نقل سارتوريس إلى قيادته.

كانت دوريّة العصر في مهمّة استطلاعيّة، وغادر الباقون إلى آميان على ما أظنّ، وظلّت القاعدة مهجورة. كنت جالسًا والسرجنت على صفيحتين من التنك عند بوّابة حظيرة الطائرات حين رأيت رجلاً يمدّ رأسه من باب مطعم الضبّاط وينظر في الاتّجاهين، بمكر وتيقّظ. كان هذا سارتوريس وكان يبحث عن الكلب.

«الكلب؟»، سألت السرجنت. فأخبرني، بناء على ملاحظته الشخصيّة وملاحظات جميع المجنّدين التي يتمّ تبادلها والمقارنة بينها على موائد الطعام، أو خلال تدخين الغليون مساء: ذلك التحقيق التفصيلي الرهيب الذي يقوم به الأدنى رتبة؛ حين يغادر سبومر القاعدة الجوِّيَّة، يضع الكلب في مكان مقفل، ويغيّر المكان كلّ مرّة، لأنّه يعلم أنّ سارتوريس سيستمرّ بالبحث عنه حتى يجده.

---

(١) كامبراي Cambrai: مدينة في شمال فرنسا.

يبدو أنّه كلب ذكي، لأنّه إذا ذهب سبومر إلى القاعدة فحسب أو إلى قريب لأداء عمل ما، فإنّه يبقى في القاعدة، منكّشًا في صندوق القمامة وراء حمّام الجنود، الذي كان مدمنًا عليه، ويفضّله على حمّام الضبّاط. لكن إذا ذهب سبومر إلى آميان، فإنّ الكلب يتّجه فورًا إلى الطريق المؤدّية إليها بعد إطلاقه، ويعود لاحقًا مع سبومر في السيّارة العسكريّة.

سألته: «لماذا يطلقه سارتوريس؟ أتعني أنّ الكابتن سبومر يعارض أن يأكل الكلب فضلات المطبخ؟».

لكنّ السرجنت لم يكن يصغي. كان يمدّ رأسه حول الباب، مراقبًا سارتوريس الذي خرج من المطعم واقترب من حظيرة الطائرات عند نهاية الخطّ، وهو ما يزال متيقّظًا والعزم بادٍ على مُحيّاه. دخل إلى الحظيرة. فقلت للسرجنت: «هذا يبدو عملاً صبيانيًّا بالنسبة إلى رجل بالغ».

نظر السرجنت إليّ، ثم أشاح عنّي، «يريد أن يعرف ما إذا كان الكابتن سبومر ذهب إلى آميان أم لا».

وبعد فترة قلت «لا بدّ أنّ في الأمر فتاةً ما، أليس كذلك؟».

لم ينظر إليّ «قد تسمّيها شابّة. أفترض أنّ لديهم شابّات في هذه البلاد». فكّرت في كلامه لبعض الوقت. خرج سارتوريس من

الحظيرة الأولى ودخل إلى الثانية. قلت له: «أتساءل إذا كان لا يزال ثمّة شابّات في أيّ مكان».

«ربّما كنت محقًّا يا سيّدي. الحرب قاسية على النساء».

سألته: «ماذا عن هذه الفتاة، من تكون؟».

فحكى لي. تديران، هي وامرأة عجوز، حانة صغيرة، «نوعًا من الملهى»، أسماها. مكان صغير في زقاق خلفي لا يقصده الضبّاط. ربّما لهذا تسبّب سارتوريس وسبومر بهذا القدر من التوتّر هناك. فهمت من الرقيب أنّ التنافس بين قائد السرب وأحد أكثر ضبّاطه يفاعة كان محلّ اهتمام عامّ، وموضوع أكثر النقاشات حرارة، حتى أنّه محلّ رهانات بين المجنّدين الفرنسيّين والإنجليز، «بما أنّهما ضابطان وما إلى ذلك»، على حدّ قوله.

سألته: «أفزعا الجنود فهربوا، أليس كذلك؟ أهذا هو الأمر؟». لم ينظر الرقيب إليّ. «أهناك الكثير من الذين اضطرّا إلى إفزاعهم؟».

«أفترض أنّك تعرف كيف هنّ تلك الشابّات، في ظلّ هذه الحرب وما شابه».

وهكذا أجابني عمّن تكون هذه الفتاة. أو عمّا تكون. قال إنّ الفتاة والعجوز لا تربطهما أدنى قرابة. وأخبرني أنّ سارتوريس

صار يشتري لها الهدايا ــ الثياب والمجوهرات؛ ذلك النوع من المجوهرات المقلّدة الذي تشتريه في آميان على الأرجح. أو ربّما في ملهى للجنود، لأنّ سارتوريس لم يكن يتجاوز العشرين بكثير. رأيت بعض الرسائل التي أرسلها إلى عمّته الكبرى في الديار، رسائل يمكن لطفل في الحضانة، أن يكتبها بصورة أفضل. ويبدو أنّ سبومر لم يقدّم للفتاة أيّ هدايا. «ربّما لأنّه كابتن»، قال السرجنت، «أو ربّما بسبب تلك الشرائط ليس مضطرًّا لذلك».

«ربّما».

وتلك الفتاة بمجوهراتها الرخيصة التي يهديها إيّاها سارتوريس، تقدّم الجعة والنبيذ للجنود البريطانيّين والفرنسيّين في أحد شوارع آميان الخلفيّة، وبسببها استعمل سبومر رتبته لكي يخون سارتوريس معها إذ طلب منه البقاء في القاعدة الجوِّيَّة للقيام بمهمّات خاصّة، مقفلاً الباب على الكلب لكي لا يعرف سارتوريس أنّه يقابلها. وسارتوريس يبذل جهده منتقمًا عبر إخراج الكلب بحيث ينكّش عن الطعام المبتذل في القمامة.

دخل إلى الحظيرة التي كنت والسرجنت أمامها: شابّ طويل باهت العينين، وبالغ الجدِّيَّة. نظر إليّ وقال: «مرحبًا».

قلت: «مرحبًا». وهمّ السرجنت بالوقوف.

قال سارتوريس: «ارتاحا، لا أريد شيئًا». وذهب إلى مؤخّر الحظيرة ليبحث عن الكلب بين ركام أسطوانات الغاز والصناديق الفارغة وما شابه. كان فاقدًا صوابه كلّيًّا، غير شاعر بأيّ خجل من أفعاله الصبيانيّة.

عثر على الكلب في أحد الصناديق، وأخرجه. كلب ضخم، تغلب الصفرة الباهتة على لونه؛ كان فولانزبي قد أخبرني أنّه، باستثناء شارة الجناح وميداليّة «مونز ستار» والجدارة، كان سبومر والكلب متشابهين. خرج الكلب يعدو من الحظيرة، ناظرًا إليّ نظرة سريعة جانبيّة، ثم اختفى وراء حمّام الرّجال. ثم خرج سارتوريس وعاد إلى مقصف الضبّاط واختفى أيضًا.

بعدها بفترة قصيرة، عادت دوريّة العصر. وبينما كانت الطائرات تلوح في الأفق، دخلت سيّارة السرب إلى القاعدة وتوقّفت عند مطعم الضبّاط وخرج منها سبومر. قال لي السرجنت: «انظر، سيحاول أن يأتي بالكلب كأنّه لا يراقب نفسه، كأنّه لا يلاحظ نفسه».

مشى على طول الحظائر، ضخمًا، يلبس جوربي جولف. ولم يرني قبل أن ينعطف عند الحظيرة. فتوقّف؛ كان الأمر متناهي الصغر، ثم دخل إلى الحظيرة، ونظر إليّ نظرة جانبيّة خاطفة. «كيف ترى؟»، قال بصوت عالٍ مشاكس. كان السرجنت قد هبّ

على قدميه. لم أر سبومر ينظر حتى إلى المؤخّر، نحو الصندوق المقلوب، لكنّه توقّف، ونادى: «أيّها السرجنت».

«سيّدي».

«أيّها السرجنت، هل وصلت ساعات التوقيت تلك؟».

«أجل سيّدي. وصلت قبل أسبوعين. جميعها وُضعت في حيّز الاستعمال».

«هكذا إذن، هكذا إذن». واستدار؛ مجدّدًا رمقني سريعًا تلك النظرة الجانبيّة الخاطفة، ومضى على طول الحظيرة، بخطى بطيئة. اختفى. وقال السرجنت: «انظر الآن، لن يتّجه إلى هناك حتى يعتقد أنّنا كففنا عن مراقبته».

ظللنا ننظر حتى رأيناه ثانية، وهو يعبر نحو حمّام الرجال، ماشيًا بحيويّة. اختفى وراء الزاوية. ثم ظهر بعد ثانية، جارًّا الكلب الضخم الخامل من مؤخّر عنقه، مخاطبًا إيّاه: «لا ينبغي أن تأكل هذه الأشياء، هذه الأشياء للجنود».

IV

لم أعرف وقتذاك ماذا حدث تاليًا. لم يخبرني سارتوريس إلاّ لاحقًا. ربّما حتى ذلك الوقت لم يكن لديه شيء سوى الغريزة

والأدلّة الظرفيّة التي تنبئه أنّه يتعرّض للخيانة: أدلّة من نوع تكليف سبومر له بمهمّة ما ليست ضمن مجاله على الإطلاق لكنّها تكفل مكوثه في القاعدة حتى العصر، أو عثوره على الكلب المخبوء وتحريره، ثم مشاهدته يعدو بشكلٍ أخرق إلى طريق آميان.

لكن حدث شيء ما. كلّ ما عرفته وقتذاك هو أنّ سارتوريس عثر على الكلب ذات عصرٍ، وراقبه وهو يرحل نحو آميان. ثم خرق الأوامر المعطاة له، واستعار درّاجة ناريّة وذهب إلى البلدة هو الآخر. بعد ساعتين عاد الكلب وذهب إلى باب مطبخ الجنود، وبعد فترة قصيرة عاد سارتوريس نفسه على متن شاحنة (كانوا قد بدأوا بإخلاء آميان من السكّان) محمّلة بالأغراض المنزليّة ويقودها جندي فرنسي في ثوب فلاّحي. وكانت الدرّاجة الناريّة على متن الشاحنة أيضًا، وقد باتت متعذّرًا إصلاحها إلى حدّ كبير. روى الجندي كيف أنّ سارتوريس أسقط الدرّاجة في حفرة، وهو يحاول اللّحاق بالكلب بأقصى سرعة.

لكن لا أحد عرف وقتذاك ماذا حدث بالضبط. لكنّني تخيّلت المشهد، قبل أن يخبرني به سارتوريس. تخيّلته هناك، في تلك الحجرة الصغيرة المكتظّة بالجنود الفرنسيّين، والمرأة العجوز (كان يمكنها قراءة الطالع بلا شكّ؛ أو شارات الرتب بطبيعة الحال) وهي تستقبله عند الباب وتقوده إلى الداخل. أتخيّله غاضبًا، حائرًا، عاجزًا عن النطق (لم يكن يعرف الفرنسيّة) يقف أطول قامة من الجنود

الفرنسيّين الذين لم يكن قادرًا على فهم ما يقولونه لكنّه متيقّن من أنّهم يسخرون منه. أخبرني: «هكذا كان الأمر، كانوا يسخرون منّي خلسة، بسبب امرأة. وأنا أعرف أنّه هناك في الأعلى، وأنّني لو اقتحمت الغرفة وجررته إلى الخارج وحطّمت رأسه، فلن يتمّ صرفي من الخدمة فحسب، بل سأُسجن مدى الحياة بانتهاكي حرمة التحالف عبر غزو ملكيّة أجنبيّة من دون مذكّرة تفتيش أو ما شابه».

ثم عاد إلى القاعدة وصادف الكلب على الطريق وحاول اللّحاق به. وصل الكلب إلى القاعدة، وعاد سبومر، وجرّه من رقبته من الحمّام وراء مطعم الجنود. حين وصلت دوريّة العصر، كانوا قد ذهبوا ستّة وعادوا خمسة. قفز قائد الطائرة منها قبل أن تتوقّف تمامًا. كان ثمّة رقعة ملطّخة بالدماء تلفّ يده اليمنى وهرع إلى سبومر الذي جثم كلبه على الأرض رافضًا المشي معه. وقال الطيّار: «بحقّ الله، لقد أسقط كامبراي».

لم ينظر سبومر إليه: «من؟».

«جيري بحقّ الله»[1].

---

(١) جيري Jerry: على غرار Hun تعدّ هذه الكلمة ذات الأصل البريطاني نوعًا من الوصف المهين للألماني. الأغلب أنّها تحريف لكلمة ألماني بالإنجليزيّة German.

«حسنًا بحقّ الله، تعال معي الآن. لقد أخبرتك عن ذلك القذر».

رجل كهذا لا يُمسّ. حين تكلّمت وسارتوريس للمرّة الأولى أخبرته بذلك. ثم علمت أنّ سارتوريس كان لا يُمسّ أيضًا. تكلّمنا، في تلك المرّة الأولى، وقال لي: «حاولت إقناعه بأن يسمح لي بتعليمه قيادة طائرة كامل، كنت مستعدًّا لتعليمه بالمجان. قلت له إنّني مستعدّ لانتزاع مقصورة الطيّار والعجلات بنفسي، من أجل لا شيء».

«لكن لماذا؟».

«أو من أجل أيّ شيء. سأترك الخيار له. يستطيع أن يقود طائرة «أس إي» لو شاء، وأن أقود أنا «أيه كي دبليو» أو حتى طائرة «في»، وسأسابقه حتى أخرجه من السماء في غضون أربع دقائق، ثم سأسابقه بسرعة شديدة هبوطًا إلى حدّ سيضطرّ معه إلى الوقوف على رأسه لكي يبتلع ريقه».

تكلّمنا مرّتين: المرّة الأولى، والمرّة الأخيرة. وفي الأخيرة قلت له: «حسنًا لقد فعلت ما هو أفضل من هذا».

لم يكن قد بقي أيّ أسنان في فمه تقريبًا، ولم يعد قادرًا على النطق جيّدًا، ولا التكلّم كثيرًا، فحياته كلّها كانت تقوم على مائتي كلمة. وسألني: «أفضل من ماذا؟».

«قلت لي سابقًا إنّك تستطيع إخراجه من السماء. لكنّك فعلت ما هو أفضل: أخرجته من قارّة أوروبّا كلّها».

V

أظنّ أنّني قلت إنّه كان لا يُمسّ أيضًا. لم يستطع الحادي عشر من نوفمبر ١٩١٨ قتله[١]، أو أن يجعله يسمن أكثر فأكثر كلّ عام وراء مكتب، أن يتحوّل من رجل كان يوم صلبًا ونحيلاً ومتأهّبًا إلى شخص قاتم بعض الشيء، حائر بعض الشيء، ويشعر بأنّه تعرّض للخيانة، فيومذاك كان قد مضى على موته ستّة أشهر.

قُتل في يوليو، لكنّنا تكلّمنا في تلك المرّة الأخيرة، وتلك المرّة الأولى قبلها. وقد جرت المرّة الثانية بعد أسبوع من عودة سرب الاستطلاع، وقوله إنّ كامبراي قد سقطت، بعد أسبوع من سماعنا القذائف تتساقط على آميان. أخبرني عنها بنفسه، من بين أسنانه الساقطة. كان السرب كلّه خرج مجتمعًا. لكنّه حلّق خارجه حالما وصلوا إلى الجبهة المخترقة، وعاد إلى آميان، محتسيًا البراندي من قنّينة خبّأها في جيب سترته. كان يجري إخلاء آميان. فغصّت الشوارع بالشاحنات والعربات التي تنقل الأغراض المنزليّة،

(١) يوم وقف إطلاق النار.

وبسيّارات الإسعاف من مستشفى القاعدة، وبات ممنوعًا الدخول إلى المدينة والمنطقة المحيطة بها مباشرة.

حطّ في مرج صغير. قال إنّه رأى امرأة عجوزًا تعمل في حقل وراء القناة (وكانت ما تزال هناك حين عاد بعد ساعة، منحنية بعناد بين صفوف الزرع الخضراء، في الهواء الربيعي الندي الذي يهزّه في فترات زمنيّة وحشيّة وبطيئة صوت القذائف المنهمرة على المدينة) ورأى سيّارة إسعاف متوقّفة إلى جانب الطريق.

اقترب من السيّارة، ووجد المحرّك شغّالاً. كان السائق شابًّا يضع نظّارتين طبّيّتين، وبدا مترعًا من السكر، وقد انطرح نصفه خارج باب السيّارة. شرب سارتوريس جرعة من قنّينته وحاول إيقاظ السائق، لكن عبثًا. ثم شرب جرعة أخرى (أتخيّل أنّه كان في غاية السكر؛ أخبرني أنّه صبيحة ذلك اليوم، حين ذهب سبومر بالسيّارة، ثم عثر على الكلب وحرّره ورآه يسلك طريق آميان، حاول إقناع مدير العمليّات بأن يعفيه من الذهاب في الدوريّة فأجابه الضابط بأنّ لا فاييت ينتظره شخصيًّا في سهل سانتير)(١). فقام سارتوريس بتنحية السائق المخمور والغائب عن الوعي جانبًا وقاد سيّارة الإسعاف إلى آميان.

---

(١) سهل سانتير Santerre : على بعد نحو عشرة أميال من «آميان» Amiens وقد تعرّض بالفعل لقصف جوّي عنيف من قبل القوّات الألمانيّة مع قرب نهاية الحرب العالميّة الأولى.

أخبرني أنّ الجندي الفرنسي كان يشرب من قنّينة على مدخل الحانة الصغيرة. وكان الباب مقفلاً. أتى سارتوريس على قنّينة البراندي كاملة، ثم اقتحم باب الحانة كلاعب كرة قدم أميركيّة. وحين أصبح في الداخل، وجد الحانة فارغة من الشراب، ولم يستطع في البداية أن يتذكّر سبب دخوله إلى الحانة، فقال لنفسه إنّه لا بدّ فعل ذلك من أجل الشراب. وجد قنّينة نبيذ تحت المشرب، فكسر عنقها بحافّة المشرب، ووقف هناك يتأمّل نفسه في المرآة التي خلف المشرب، محاولاً أن يتذكّر السبب الذي جاء من أجله. ووصف نفسه قائلاً: «بدوت جامحًا جدًّا».

ثم سقطت القذيفة الأولى. أتخيّل الأمر: هو واقف هناك في الحانة الصامتة المخرّبة العابقة بالروائح، ناظرًا عبر بابها المحطّم إلى المدينة الغافلة في الخارج، ثم هبط ذلك الصوت البطيء، غير العجول، المجلجل، مخترقًا الهواء الربيعي الكثيف مثل يد تهوي بلا تردّد على الصمت المظلم؛ روى كيف أنّ الغبار أو الرمل أو الجصّ، شيئًا ما، انفجر في مكان ما، صافرًا في هسيس باهت، وكيف قفز قطّ ضخم إلى المشرب من دون صوت، ثم قفز إلى الأرض واختفى مثل زئبق متّسخ.

ثم رأى الباب المقفل وراء المشرب وتذكّر الغرض الذي جاء من أجله. اتّجه صوب الباب، متوقّعًا أن يكون موصدًا أيضًا، وأمسك المقبض وشدّ بكلّ قوّته. لم يكن الباب مقفلاً. قال إنّ الباب

ارتدّ على رفوف المشرب مصدرًا صوتًا يشبه قرقعة الرصاص، وموقعًا إيّاه أرضًا: «فارتطم رأسي بالمشرب وربّما شعرت ببعض الدوار بعد ذلك».

على أيّ حال، كابد للوقوف عند الباب، وراح ينظر إلى المرأة العجوز التي تجلس على الدرجة السفلى من السلّم، رافعة مئزرها فوق رأسها، متأرجحة إلى الأمام والخلف. قال إنّ المئزر كان نظيفًا تمامًا فوق رأسها الذي يتأرجح إلى الأمام والخلف مثل كبّاس، وهو واقف عند الباب، يسيل لعابه بعض الشيء. «مدام»، قال لها. ظلّت العجوز تتأرجح إلى الأمام والخلف. استند بحذر إلى الجدار وانحنى ولمس كتفها. «توانيت، كي سيل توانيت؟»[1]. تلك الكلمات كانت على الأغلب كلّ ما يعرفه من الفرنسيّة؛ إلى جانب كلمة نبيذ مضافة إلى الـــ ١٩٦ كلمة أخرى تشكّل قاموسه اللغوي.

مجدّدًا لم تجب العجوز. ظلّت تتأرجح إلى الأمام والخلف مثل دمية رجراجة. خطا فوقها بحذر وصعد السلم. كان ثمّة باب ثان عند رأس السلّم. وقف أمامه مصغيًا، وقد امتلأ حلقه بسائل مالح حارق. بصقه ولعابه يسيل. فعاود حلقه الامتلاء به. هذا الباب لم يكن مقفلاً أيضًا. دخل إلى الغرفة على مهل. في الغرفة طاولة عليها قبّعة كاكيّة ذات حافّة برونزيّة، خاصّة بسلاح الجوّ، وبينما

(١) الأصل بالفرنسيّة، بمعنى «توانيت (أنطوانيت) أين هي أنطوانيت؟».

وقف عند الباب ولعابه يسيل، برز الكلب من ركن الغرفة بُعَيد النافذة، وبينما راح هو والكلب يتبادلان النظرات عبر الطاولة، جاء صوت القذيفة الثانية مكتومًا ووحشيًّا في آن وتردّدت أصداؤه في الغرفة، هازًّا الستائر المترهّلة أمام النافذة.

بدأ يدور حول الطاولة، والكلب يدور معه، مبقيًا الطاولة حاجزًا يفصل بينهما، محملقًا فيه. ثم حاول التحرّك بسرعة، لكنّه اصطدم بالطاولة (ربّما بسبب انشغاله بمراقبة الكلب) وروى أنّه حين وصل إلى الباب المقابل ووقف وراءه، ممسكًا أنفاسه، ولعابه يسيل، سمع صوت الصمت في الغرفة المجاورة. ثم سمع صوتًا:

«أمّاه؟».

اقتحم الباب، مجدّدًا كلاعب كرة قدم أميركيّة. سمع صرخة الفتاة، لكنّه لم يرها، ولم ير أحدًا البتّة. فقط سمع صراخها وهو يطوف في الغرفة على أربع. كانت غرفة نوم تحتلّ أحد جدرانها خزانة ملابس كبيرة ذات بابين. كانت الخزانة مقفلة، وبدت الغرفة فارغة. لم يتّجه إلى الخزانة. بل جثم في مكانه، على يديه وركبتيه، ولعابه يسيل مثل بقرة، مصغيًا إلى تلاشي صدى القذيفة الثالثة، ناظرًا إلى ستائر النافذة وهي تهبّ منتفخة إلى الداخل كأنّما بفعل نفس.

نهض قائمًا. قال: «كنت ما زلت أشعر بالدوار، وأظنّ أنّ النبيذ والبراندي امتزجا في داخلي». كان ثمّة كرسي ألقي عليه بعناية سروال وسترة عليها شارة «مراقب طيران» وشارتان أخريان، وحزام عسكري. وبينما هو واقف يتأمّل الكرسي سقطت القذيفة الرابعة.

التقط الثياب. وقع الكرسي فركله جانبًا ومضى مترنّحًا بمحاذاة الجدار نحو الباب المخلوع، وعاد إلى الغرفة الأولى، آخذًا القبّعة عن الطاولة في أثناء مروره. كان الكلب قد رحل.

وجد المرأة العجوز لا تزال جالسة أسفل السلّم، واضعة مئزرها فوق رأسها، متأرجحة إلى الأمام والخلف. وقف في الأعلى، محاولاً ألاّ يقع، منتظرًا أن يبصق. ثم سمع صوتًا من الأسفل: «Que faites-vous en haut»[1]؟

نظر إلى مصدر الصوت فرأى الجندي الفرنسي الذي صادفه عند مدخل الحانة يشرب من القنّينة. لوهلة تبادلا النظر. ثم قال له الجندي «انزل»، مؤشّرًا بذراعه بطريقة آمرة. حاملاً الثياب بيد، وأسند سارتوريس الأخرى على درابزين السلّم وقفز إلى الأسفل.

قفز الجندي جانبًا. فارتطم رأس سارتوريس بالجدار خلفه. وحين همّ بالوقوف ثانية انقضّ الجندي عليه وركله برجله على

---

(١) بالأصل بالفرنسيّة: «ماذا تفعل في الأعلى؟».

حوضه. ثم ركله ثانية. لكن سارتوريس طرحه أرضًا على معطفه الأخرق الواقي من المطر، بينما الجندي يحاول إخراج شيء ما من جيبه راكلاً بجزمته سارتوريس على معدته.

تمدّد سارتوريس فوقه قبل أن يتمكّن من إطلاق الرصاص عليه، وأسقط المسدّس من يده. قال إنّه أحسّ بعظام الرجل تطقطق تحت جزمته، وأنّ الجندي بدأ يصرخ كامرأة وراء شاربيه الكثّين مثل قُطّاع الطرق. هذا ما جعل الأمر مضحكًا، قال سارتوريس: كان الصراخ ينبعث عبر شاربيه مثل قراصنة جيلبرت وسوليفان[1]. وقال إنّه أوقف صراخ الجندي عبر إنهاضه وقوفًا بيد وصفعه باليد الأخرى على خدّه. وقال إنّ المرأة العجوز لم تتوقّف خلال ذلك عن التأرجح إلى الأمام والخلف تحت مئزرها النظيف، «كأنّها تأنّقت في انتظار أن تتعرّض للنهب والاعتداء»، بحسب وصفه.

جمع الثياب. اتّجه إلى المشرب وأخذ جرعة أخرى من القنّينة، ناظرًا إلى نفسه في المرآة. ثم رأى الدماء تسيل من فمه، ولم

---

(١) جيلبرت وسوليفان: فنّانان موسيقيّان ومسرحيّان بريطانيّان قدّما بين عامي ١٨٧١ و١٨٩٦ أعمالاً مسرحيّة موسيقيّة كوميديّة، من بينها «قراصنة بينزانس» التي على الأرجح يقصدها فوكنر في إشارته هذه إلى القراصنة.

يعرف أنّه عضّ لسانه حين قفز من فوق الدرابزين أو ربّما جرح لسانه بعنق القنّينة المكسور. أفرغ القنّينة ورماها أرضًا.

قال إنّه لم يعرف وقتذاك ما الذي ينوي فعله، وإنّه لم يدرك ذلك حتى وهو يخرج السائق فاقد الوعي من سيّارة الإسعاف ويلبسه سروال النقيب سبومر وقبّعته وسترته، ويضعه ثانية في السيّارة.

تذكّر أنّه رأى دواة مغبرّة وراء المشرب. ثم وجد في معطفه قصاصة ورق، فاتورة تلقّاها قبل ثمانية أشهر من خيّاط لندني، ومستندًا إلى المشرب، يسيل لعابه ويبصق، كتب على قفا الفاتورة اسم الكابتن سبومر ورقمه واسم قاعدته الجويِّة، ووضع الورقة في جيب سترة السائق المخمور تحت الشارات، وعاد بسيّارة الإسعاف إلى حيث ترك طائرته.

هناك، كانت كتيبة أستراليّة تستريح في قناة بجانب الطريق. ترك سيّارة الإسعاف والمسافر النائم معهم، وساعده أربعة منهم على تشغيل المحرّك وجرّ الطائرة لكي يتمكّن من الإقلاع في تلك المسافة الضيّقة.

ثم عاد إلى الجبهة. قال إنّه لا يتذكّر ذهابه إلى هناك على الإطلاق، فآخر ما تذكّره هو المرأة العجوز في الحقل تحته، ثم فجأة وجد نفسه عالقًا في وابل من الرصاص، وكان منخفضًا كفاية

بحيث شعر بالارتجاج بين الأرض والطائرة، ورأى بوضوح وجوه الجنود. لكنّه لم يعرف جنود من كانوا، جنودهم أم جنودنا، لكنّه قصفهم على أيّ حال، «لأنّني لم أسمع إطلاقًا عن رجل على الأرض تأذّى من طائرة»، قال، «بلى سمعت، أسحب ما قلته. كان ثمّة مزارع في كندا يحرث وسط حقله الواسع، وسقطت طائرة على رأسه مباشرة».

ثم عاد إلى قاعدته. أخبروه هناك أنّه أخذ يحلّق بين حظيرتين على ارتفاع منخفض بحيث رأوا صمّامي عجلات الطائرة، ثم هبط بالطائرة على المدرج، قبل أن يرتفع ثانية. أخبرني السرجنت أنّه رآه يصعد عموديًّا بالطائرة حتى توقّف، وانقلب بها، لأنّه «كان يراقب الكلب الذي رجع قبل نحو ساعة وأخذ يتشمّم في القمامة خلف مقصف الجنود». قال إنّ سارتوريس هبط نحو الكلب ثم ارتفع منقلبًا مرّتين بالطائرة، هابطًا بالمقلوب على جناح واحد، ثم قال السيرجنت إنّه على الأرجح لم يشغّل الصمّام الهوائي، لأنّه على علوّ مئة قدم توقّف المحرّك ومحلّقًا بالمقلوب قطع سارتوريس رأسي شجرتي الحور المتبقّيتين هناك.

قال السرجنت إنّهم ركضوا عندها نحو غيمة الغبار وخليط الأسلاك والخشب. وقبل أن يصلوا إليه جاء الكلب يعدو من وراء مقصف الجنود. قال إنّ الكلب وصل أوّلاً وإنّهم رأوا سارتوريس

مقعيًا على يديه ورجليه، يتقيّأ، بينما الكلب يحملق به. ثم اقترب منه وراح يتشمّم باهتمام القيء ونهض سارتوريس وركل الكلب، ركلة خفيفة إنّما بنيّة متوحّشة صارمة.

VI

أعاد قائد الكتيبة الأستراليّة سائق سيّارة الإسعاف، مرتديًا زيّ سبومر، إلى القاعدة الجوِّيَّة. وضعوه في السرير، حيث كان مستغرقًا في غفوته حين جاء قائد اللّواء وقائد القاعدة عصر ذلك اليوم. كانا ما يزالان هناك حين دخلت إلى القاعدة عربة يجرّها ثور وتوقّفت هناك، وفيها، جالسًا في قفص من الأسلاك المعدنيّة فيه دجاج، سبومر بتنّورة نسائيّة ووشاح. في اليوم التالي أعيد سبومر إلى إنجلترا. وقد علمنا أنّه عُيّن كولونيلاً موقّتًا في مدرسة الطيران.

قلت: «سيحبّ الكلب هذا على أيّ حال».

قال سارتوريس: «الكلب؟».

«الطعام هناك سيكون أفضل».

«أوه»، قال سارتوريس. كانت رتبته قد أُخفضت إلى ملازم ثان، بسبب عصيانه الأوامر ودخوله إلى منطقة محرّمة في ملكيّة حكوميّة وتركها بلا حراسة، كما جرى نقله إلى سرب آخر، إلى السرب الذي كان الناس، حتى ملاّحو طائرات «بي إي»، يسمّونه «المغسلة»[١].

كان هذا قبل يوم من مغادرته. صار أدرد تمامًا، وكلّما تكلّم يعتذر عن طريقة تكلّمه، علمًا أنّه قبل سقوط أسنانه لم يكن يتكلّم بطريقة سليمة. وقال: «الطرفة هي أنّه سرب كامل آخر. عليّ أن أضحك».

«تضحك؟».

«أوه، أستطيع قيادتها. أستطيع إبقاء الجانحين متوازنين. لكنّني لا أجيد التحليق بطائرات كامل. الهبوط بهذه الطائرة يتمّ عبر تجهيز الصمّام الهوائي والتحليق بها نحو الأرض. ثم تعدّ إلى عشرة، وإذا لم ترتطم، تستوي بها. وإذا تمكّنت من الخروج من الطائرة سليمًا على قدميك تكون قد قمت بهبوط جيّد. وإذا أمكنهم استعمال الطائرة مجدّدًا تعدّ بطلاً. لكن ليست هذه الطرفة».

«وما هي؟».

---

(١) بسبب بدائيّة طائرة «بي إي» القتاليّة كان يسقط عدد كبير من طيّاريها ومن هنا تسمية «المغسلة».

«الطرفة هي أنّه سرب ليلي. إنّهم ينقلونني إلى سرب ليلي. لهذا عليّ أن أضحك».

«أليس ثمّة ما يمكنك فعله حيال الأمر؟».

«بالتأكيد. عليّ فقط أن أبقي الصمّام الهوائي ذاك مجهّزًا بالشكل الصحيح، وألاّ أسقط الطائرة. لهذا السبب يجب أن أضحك. أنا لا أستطيع قيادة الكامل في النهار حتى، وهم لا يعرفون ذلك».

«حسناً، على أيّ حال، لقد فعلت أكثر ممّا توعّدت به، لقد أخرجته من قارّة أوروبّا».

«أجل، بالتأكيد يجب أن أضحك. فسوف يعود إلى إنجلترا حيث قضى جميع الرّجال نحبهم. كلّ أولئك النسوة وليس من رجل بين الرابعة عشرة والثامنة عشرة ليساعدهنّ. يجب أن أضحك».

VII

في يوليو كنت ما أزال في القاعدة الجوّيّة، محاولاً التكيّف مع رجلي الاصطناعيّة، جالسًا إلى نضد جُهّز بقطّاعة ورق وأنبوب غراء وأنبوب آخر يحتوي على حبر أحمر، ويغصّ بالمغلّفات الرفيعة، بعضها وسخ وبعضها نظيف، والتي ترد في فترات

منتظمة ــ مغلّفات موجّهة إلى مدن وقرى وأحياناً إلى أصغر من قرى، في إنجلترا ــ ذات يوم حين وقع بين يديّ مغلّفان مرسلان إلى الشخص نفسه في أميركا: رسالة وطرد. فتحت الرسالة أوّلاً. لم يكن فيها لا عنوان ولا تاريخ.

عمّتي العزيزة جيني،

أجل، وصلتني الجوارب التي خاطتها إلنورا. ووجدتها مناسبة لأنّني أعطيتها إلى مرافقي وقال إنّها ناسبت مقاس قدميه. أجل أحبّ هذا المكان أكثر لأنّ الشباب هنا رائعون، ما عدا طائرات كامل تلك. أنا بخير وبخصوص الذهاب إلى الكنيسة فإنّ هذا لا يتوافر دائمًا. أحياناً يوفّرونها للطيّارين الصباحيّين[1] لأنّني أظنّ أنّهم يحتاجون إليها، أنا عادة أكون منشغلاً جدًّا يوم الأحد لكنّني أذهب كفاية إلى الكنيسة على ما أظنّ. اشكري إلنورا كثيرًا نيابة عنّي على الجوارب وقولي لها إنّها ناسبت مقاس قدمي، لكن ربّما يستحسن ألاّ تخبريها أنّني منحتها لشخص آخر. بلّغي إيسوم

(١) في الأصل يستعمل فوكنر تعبير ak emmas (Ack Emma) من تشفيرات الحرب العالميّة الأولى، خصوصًا في الرسائل، ويعني هذا التعبير التوقيت الصباحي.

والزنوج الآخرين سلامي وأخبري جدّي أنّ المال وصلني لكنّ الحرب مكلفة للغاية.

جوني

لكنّني أحسب أنّ أمثال مالبروك[1] لا يصنعون الحروب على أيّ حال. إذ يلزم الكثير من الكلمات لصنع حرب. ربّما كان هذا هو السبب.

كان الطرد موجّهًا مثل الرسالة إلى مسز ڤرجينيا سارتوريس، جيفرسون، مسيسيبي، الولايات المتحدة الأميركيّة. وفكّرت ما الذي خطر على باله فأرسلها لها؟ لم أستطع تخيّله يشتري هديّة لامرأة في بلد أجنبي؛ مختارًا إحدى تلك الهدايا التافهة التي ينتقيها الرجال بنوع من الذوق. هديّته ستكون، إذا فكّر في إرسال أيّ هديّة، قطعة من ذراع محرّك، أو قبضة من دبابيس المعصم استُخلصت من طائرة ألمانيّة مدمّرة. ففتحت الطرد. ثم جلست هناك شاخصًا في محتواه.

---

(١) راجع الهامش في «إحراق حظيرة».

كان يحتوي على مغلّف موجّه إلى أحدهم، بضع أوراق بالية، ساعة يد قد تصلّب حزامها بسائل ما أسود وجافّ، نظّارات بلا زجاج في إحدى العدستين، حزام فضّي مع مونوغرام. وهذا كلّ شيء.

لذا لم أحتج إلى قراءة الرسالة. لم يكن عليّ النظر إلى الطرد، لكنّني رغبت في ذلك. لم أرد قراءة الرسالة لكن كان عليّ ذلك.

سرب آر أيه أف[1]، فرنسا،

الخامس من يوليو، ١٩١٨

سيّدتي العزيزة

عليّ أن أخبرك أنّ ولدكم قد قُتل صباح يوم أمس. أُسقطت طائرته بينما كان يؤدّي واجبه فوق خطوط العدوّ. ليس بسبب الإهمال أو الافتقار إلى المهارة. لقد كان جنديًّا جيّدًا. لقد فاق عدد طائرات «الإي أيه» طائرة ابنك كما أنّها تستطيع الوصول إلى سرعات أكبر ومرتفعات أعلى، وهذا من سوء حظّنا لكنّه ليس خطأ

---

(١) R.A.F.: Royal Aircraft Factory: سرب طائرات «بي إي» الوارد ذكرها سابقًا.

الحكومة التي كانت لتعطينا طائرات أفضل لو كانت متوفّرة لديها وهذا ممّا لا يرضيك. واحد آخر من طيّارينا، السيد آر. كيرلنغ، لم يستطع الارتفاع فوق ألف قدم بما أنّ ابنك أمضى وقتًا طويلاً في الحظيرة وركّب محرّكًا جديدًا في طائرته قبل أسبوع. أصيبت طائرة ابنك في غضون عشر ثوان كما قال السيّد كيرلنغ الذي قفز من طائرة ابنك لأنّه كان ينزلق جانبيًّا بأمان حتى أطلقت طائرة «إي آيه» النار على مثبّته وأدوات التحكّم وبدأ يهوي أرضًا. إنّني في غاية الحزن إذ أرسل إليك هذه الأخبار الحزينة وإن كان في هذا عزاء لك فقد دُفن من قبل كاهن. وسوف ترسل متعلّقاته الأخرى إليك لاحقًا.

المايجور سي كاي

لقد دُفن في المقبرة إلى شمال سانت فاست، إذ إنّنا نأمل أنّها لن تتعرّض للقصف ثانية ونأمل أنّ الأمر سينتهي قريبًا من قبل جنودنا فهناك طائرتا كامل فحسب وسبعة إيه آيه، كانت بجانبنا في ذلك الوقت.

المايجور سي كاي

كانت الأوراق الأخرى رسائل، من العمّة الكبرى، ليست بالكثيرة ولا بالطويلة. لا أعرف لماذا احتفظ بها، لكنّه احتفظ بها. ربّما يكون قد نسيها فحسب، مثلما نسي فاتورة الخيّاط اللندني التي وجدها في جيب معطفه في آميان في ذلك اليوم الربيعي.

... دعك من تلك النساء الأجنبيّات، لقد عشت حربًا بدوري وأعرف كيف تتصرّف النساء في الحرب، حتى مع الأميركيّين... ومشاكس مثلك لا يجيد شيئًا...

وهذه:

نعتقد أنّه آن الأوان حتى ترجع إلى البيت. إنّ جدك يشيخ، ولا يبدو أنّهم سيتوقّفون عن القتال هناك. لذا عد إلى الديار. اليانكيز انخرطوا فيها الآن. دعهم يقاتلون إذا كانوا راغبين في ذلك. إنّها حربهم وليست حربنا.

وهذا كلّ شيء. هذا هو الأمر. الشجاعة، البسالة، سَمِّها ما شئت، هي الوميض، اللّحظة السامية، ثم هبطت العتمة نفسها ثانية. لهذا السبب. فهي أقوى من أن تكون دائمة. وإذا كانت دائمة، فلن تكون ومضًا ولا لمعانًا. وهكذا، بما أنّها لحظويّة فيمكن حفظها

وإدامتها على الورق فحسب: صورة، بضع كلمات مكتوبة، يمكن لأيّ عود ثقاب، لشعلة غير مؤذية في يد طفل، أن تزيلها وأن تبدّدها في ثانية. إنش واحد من الخشب على رأسه كبريت أطول من الذاكرة أو الحزن؛ شعلة ليست أكبر ممّا هو النصف شلن أقوى من الشجاعة أو اليأس.

الفهرس

لا أعرف ماذا كنّا...

لكنْ بعد اثنيْ عشر عامًا أحسب أننا أشبهُ ببقّ يطفو على سطح الماء، معزول، وبلا هدف، ولا يعرف الكلل. ليس على سطح الماء؛ بل في صفحة الماء، في ذلك الخطّ الفاصل الذي ليس هواءً ولا ماءً، أحيانًا نغوص تحت الماء وأحيانًا نرتفع فوقه...

تلك كانت المياه ونحن الحطام العائم. حتى بعد اثنيْ عشر عامًا ليس الأمر بأوضح من ذلك. ليس من نهاية له ولا بداية. من العدم أَفَقْنا، مغفلين العاصفةَ التي فررْنا منها، وجنوحَ السفينة المحتوم؛ ذلك أنه في الفترة الزمنية الفاصلة بين موجتين غامرتين متْنا، وكنّا أصغرَ سنًّا من أن نكون قد عشنا.

«ليست هناك قصة كتبها فوكنر لا تتضمّن عناصر سرد عظيم».

شيكاغو تريبيون

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة/التطبيقية
الفنون والألعاب والرياضة
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة

ISBN: 978-9953-89-103-3
9 789953 891033

كلمة KALIMA
دار الآداب

تصميم الغلاف رئم الجندي